الباب الأول

بناء الأسلوب على خلاف مقتضى الظاهر
فى علم المعانى

obeikandl.com

الفصل الأول

تحولات الأسلوب الخبرى بين مقتضى الظاهر وخلاف مقتضى الظاهر

١ ـ أغراض الإسناد الخبرى فى ضوء وظائف الاتصال اللغوى .
٢ ـ أضرب الخبر ، والخروج على خلاف مقتضى الظاهر .
٣ ـ تخريج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر .

obeikandl.com

أغراض الإسناد الخبرى فى ضوء وظائف الاتصال اللغوى

ذكر " رومان ياكوبسون " أن مكونات الاتصال اللغوى ستة عناصر هى :

المرسل ، والمرسل إليه ، والرسالة ، والسياق ، والشفرة ، وقناة الاتصال . فـ (المرسل) يوجه (رسالة) إلى (المرسل إليه) (المستقبل) ، ولكى تكون الرسالة فعّالة ، فإنها تقتضى (سياقا) ، وهو المرجع الذى يحال إليه المستقبل كى يتمكن من إدراك مادة القول ، ويكون لفظيا ، أو قابلا للشرح اللفظى ، وتقتضى الرسالة (شفرة) وهى السنن اللغوى المشترك بين المرسل والمستقبل ، المتعارف عليه بينهما بصورة كلية أو جزئية ، وتقتضى الرسالة – أخيرا – قناة اتصال ، وربطا نفسيا بين المرسل والمستقبل ، يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه [*]

ويمكن تمثيل هذه العناصر عن طريق الرسم التخطيطى التالى :

السياق (Context)

(Message)

المرسل (Addresser) ——— الرسالة ——— (Addressee) المرسل إليه

قناة اتصال (Contact)

شفرة (Code)

وكل عنصر من العناصر الستة يولد وظيفة لغوية ، حين تتجه الرسالة اللغوية إلى مراعاة جانبه، والتركيز عليه .

– فتتولد الوظيفة الانفعالية (أو العاطفية ، أو التعبيرية) (Emotive) حين يتم التركيز على (المرسل) ، وتتجه الرسالة إلى التعبير المباشر عن موقفه مما يقول ، وهذا ما يجعلها تصطبغ بلون من الانفعال العاطفى ، سواء كان صادقا أو مفتعلا . ويتجلى ذلك فى طريقة النطق ، وفى أساليب تفيد الانفعال ، كالتأوه ، والتحسر ، والتعجب ، وتمثل صيغ التعجب فى اللغة ، – كما يقول ياكوبسون –

(*) أشار الدكتور عبد الله الغذامى إلى أن حازم القرطاجنى قد لمّح إلى بعض عناصر الاتصال اللغوى وعلاقتها بالأدب قبل " ياكوبسون " بقرون عديدة ، حيث ذكر أن الأقاويل الشعرية تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التى يعتنى الشاعر فيها بإيقاع الحيل التى هى عمدة فى إنهاض النفوس لفعل شئ ، أو تركه ، أو التى هى أعوان للعمد – وتلك الجهات هى : ما يرجع إلى القول نفسه ، أو ما يرجع إلى القائل ، أو ما يرجع إلى المقول فيه ، أو ما يرجع إلى المقول له . فقد نص " حازم القرطاجنى " على أربعة عناصر من عناصر ياكوبسون الستة ، وهى :

١ – ما يرجع إلى القول نفسه = الرسالة ٢ – ما يرجع إلى القائل = المرسل

٣ – ما يرجع إلى المقول فيه = السياق ٤ – ما يرجع إلى المقول له = المرسل إليه .

يراجع : حازم القرطاجنى : منهاج البلغاء ، ص ٣٤٦ ، و د / عبد الله الغذامى : الخطيئة والتكفير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٤ سنة ١٩٩٨ ، ص ١٧ .

– وقد أشار الباحث إلى أن مفهوم " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " كما شرحه البلاغيون ، يتضمن عناصر الاتصال الستة ، وبخاصة فى مجال الاتصال الأدبى .

obeikandl.com

الطبقة الانفعالية الخالصة .

– وتتولد الوظيفة الإفهامية (أو الطلبية) (Conative) حين يتم التركيز على المرسل إليه ، ويتمثل ذلك فى بعض الصيغ الطلبية كالنداء ، والأمر ، والنهى .

– ويولد السياق الوظيفة المرجعية (أو الإحالية) (Referential) وهى تمثل خلفية للرسالة تمكن المرسل إليه من تفسير الرسالة وفهمها .

– وتولد قناة الاتصال الوظيفة الانتباهية (Phatic) ، وتكمن فى الحرص على إبقاء التواصل بين المرسل والمستقبل فى أثناء الاتصال ، وفى مراقبة عملية الإبلاغ ، والتأكد من نجاحها ، وتتمثل فى العبارات التى تتردد فى المكالمات الهاتفية (آلو ، أتسمعنى ، أنت معى) فى المستوى النفعى للغة ، وفى أدوات التوكيد ، وأساليب التكرار فى المستوى الأدبى للغة .

– وعندما يكون الخطاب مركزا على (الشفرة) تبرز الوظيفة الشارحة (ميتا لغوية) (Meta Linguistic) ، ومدارها أن يتأكد أحد طرفى التواصل من أنه يستعمل والطرف الثانى النمط اللغوى نفسه ، وبالتالى يكون التخاطب قائما على التفاهم المتواصل .

– والوظيفة الشعرية (Poetic) تتحقق حين يتم التركيز على الرسالة اللغوية ذاتها ، وتكون هى غاية نفسِها ، فتصبح هى المعنية بالتحليل والدراسة .

ويمكن تمثيل الوظائف اللغوية الست فى الرسم التخطيطى التالى :

مرجعية (Referential)

انفعالية (Emotive) ——— شعرية (Poetic)——— (Conative) إفهامية

انتباهية (Phatic)

ميتالغوية (Metalinguistic)

هذا ، وترتبط البنية اللفظية للرسالة بالوظيفة المهيمنة عليها ، ولكن ذلك لا ينفى وجود الوظائف الأخرى ، وإسهامها فى تشكيل البنية اللغوية للرسالة .

وقد رأى ياكوبسون أن كل رسالة مهما كانت غايتها تتضمن وظيفة شعرية ، وأن درجة هيمنة هذه الوظيفة تختلف من رسالة إلى أخرى ، تبعا لعلاقتها بغيرها من الوظائف اللغوية [1]

وذهب " هنريش بليث " إلى أن الوظيفة الشعرية – فى النص الأدبى – لا تلغى الوظائف اللغوية الأخرى ، بل تكتفى بالهيمنة عليها ، وإذا حدث تغيير فى ترتيب الوظائف النصية تبعا لحدوث تغيير فى

---

[1] رومان ياكوبسون : قضايا الشعرية ، ترجمة محمد الولى ، ومبارك حنون ، الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر ، ط١ سنة ١٩٨٨ ، ص ٢٨ – ٣٠ .

ويراجع : تيرى إيجلتون : مقدمة فى النظرية الأدبية ، ص ١٠٨ ، ومحمد عزام : الأسلوبية ، ص ٢١ ، وحسن ناظم : مفاهيم الشعرية ، الدار البيضاء ، المركز الثقافى العربى ، ط١ سنة ١٩٩٤ ، ص ٩٠ – ٩٢ ، و د/ عبد الله الغذامى : الخطيئة والتكفير ، ص ٩ ، ١٠ .

نمط التلقى ، فقد ينتج عن ذلك إضفاء الشعرية على نص ما ، أو ضياع شعريته [٢]

ورأى " إدوارد ستاكيفينج " إضافة " الوظيفة التبجيلية أو التباعدية " إلى الوظائف الست السابقة ، وهى تشير إلى المنزلة الاجتماعية للمتكلم بالنسبة إلى المتلقى الخاص أو العام [٣] .

وفى ضوء الوظائف اللغوية السابقة يمكن القول : إن رأى البلاغيين العرب فى أغراض الإسناد الخبرى (وهو التشكيل اللغوى الذى يحتمل الصدق أو الكذب لذاته) بأنها قد ترجع إلى فائدة الخبر ، أو لازم فائدة الخبر ، يكون مقصورا على مستوى الاتصال النفعى للغة ، حيث تهيمن وظائف لغوية أخرى على الرسالة اللغوية الإخبارية ، وتتقهقر الوظيفة الشعرية ، ويصبح قصد المخبر (المرسل) بخبره " إفادة المخاطب إما نفس الحكم ، كقولك : زيد قائم ، لمن لا يعلم أنه قائم ، ويسمى هذا فائدة الخبر . وإما كون المخبر عالما بالحكم ، كقولك لمن زيدٌ عنده ، وهو لا يعلم أنك تعلم ذلك : زيد عندك . ويسمى هذا لازم فائدة الخبر " [٤] .

فالوظيفة الإفهامية التى تهيمن على الرسالة اللغوية حين يتم التركيز على " المتلقى " هى الوظيفة البارزة فى الإسناد الخبرى الذى يتجه غرضه إلى " فائدة الخبر " ، لأن " المتلقى " يكون له الحضور المهيمن على الصياغة الإخبارية .

والوظيفة التعبيرية (الانفعالية) التى تهيمن على الرسالة اللغوية ، حين يتم التركيز على "المتكلم" ، هى الوظيفة البارزة فى الإسناد الخبرى الذى يتجه غرضه إلى لازم فائدة الخبر ، لأن المتكلم يهدف إلى التعبير عن موقفه من الصياغة الإخبارية التى يرسلها ، دون إعطاء أهمية كبيرة للمتلقى .

وفى كلا الغرضين تتوارى الوظيفة الجمالية ، وتتقدم الوظيفة الإعلامية النفعية لتهيمن على التواصل بين المتكلم والمتلقى .

وقد كان البلاغيون العرب على وعى بوجوب قصر غرضى فائدة الخبر ، ولازم فائدة الخبر على المستوى النفعى الإعلامى من الإسناد الخبرى ، لأن الجملة الخبرية فى المستوى الأدبى تؤدى أغراضا جمالية وبلاغية يصعب حصرها ، وهى أغراض دينامية غير ثابتة ، تتغير بتغير السياقات المختلفة ، وتفاعل الوظيفة الشعرية مع الوظائف اللغوية الأخرى . وقد نبه " سعد الدين التفتازانى " إلى أن المخبر حين يهدف إلى إفادة المخاطب مضمون الخبر ، أو لازمه ، يكون المقصود به " من يكون بصَدد الإخبار والإعلام ، وإلا فالجملة الخبرية كثيرا ما تورد لأغراض أخرى غير إفادة الحكم أو لازمه ، مثل التحسّر والتحزن فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران { **رَبِّ إِنِّـي وَضَـعْتُهَا أُنْـثَى** }

---

[٢] هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، ترجمة د / محمد العمرى ، منشورات دراسات سال ، د . ت ، ص ٦٤ .

[٣] إدوارد ستاكيفينج : فن الشعر البنيوى وعلم اللغة ، ترجمة د / يوئيل يوسف عزيز ، مجلة الأقلام ، بغداد ، ع١١ ، ١٢ ، سنة ١٩٨٩ ، ص ٢١١ .

[٤] القزوينى ، الإيضاح ، ٤٢/١ .

[آل عمران :٣٦] وما أشبه ذلك " [٥]

وقد تردد دال " المُخْبِر " فى التراث البلاغى العربى ، وآثر البلاغيون استخدامه حين الإشارة إلى " فائدة الخبر " و " لازم فائدة الخبر " ، دون استخدام دوال تشير إلى التعامل الإبداعى مع اللغة كالأديب، والكاتب ، والشاعر ، وهى شائعة فى التراث النقدى والبلاغى ، وذلك يدل بوضوح على إدراك البلاغيين للفارق بين الرسالة اللغوية فى مستواها النفعى، والخطاب الأدبى فى مستواه الإبداعى.

ففى الخطاب الأدبى تبرز الوظيفة الشعرية ، وتظل حاضرة لكى تلفت الانتباه دائما إلى البنية اللغوية للخطاب ، وتتفاعل مع غيرها من الوظائف اللغوية الأخرى لإنتاج أغراض بلاغية وجمالية كثيرة ومتنوعة تبعا للسياقات المختلفة التى يتحرك فى فضائها الخطاب الأدبى .

ففى سياق الإحباط ، والتحسر على شئ محبوب ، وإظهار الضعف ، تتفاعل الوظيفة الشعرية مع الوظيفة الانفعالية للتعبير عن انفعال المبدع إزاء الآمال الضائعة ، والأمانى المحبطة ، وموقفه من الرسالة ، ومن السياق المحيط بها .

وفى سياق النصح والإرشاد ، وتحريك الهمة ، والحث على العمل ، والتحذير ، والتهديد والوعيد، تتقهقر الوظيفة الانفعالية تبعا لانسحاب حضور الذات المبدعة من مستوى البنية السطحية للصياغة ، وتبرز الوظيفة الإفهامية (أو الطلبية) نظرا لتوجه الناتج الدلالى للصياغة إلى المتلقى الخاص أو العام ، ومراعاة حضوره المهيمن فى البنية السطحية للصياغة بالدرجة الأولى . وتتعاون الوظيفة الانفعالية والطلبية مع الوظيفة الشعرية فى سياقات الاسترحام ، والاستعطاف ، والتأثير على مشاعر المتلقى الخاص أو العام ، وهنا يبرز دور الوظيفة التبجيلية –التى أشار إليها إدوارد ستاكيفينج– حيث تنسحق الذات المبدعة تحت وطأة واقع فعلى ونفسى أليم ، وظروف خارجية ضاغطة ، وبذلك تحتل مكانة منخفضة (حقيقية أو اعتبارية) فى أسفل السلم الاجتماعى ، بينما يحتل المتلقى الخاص المشار إليه فى الصياغة مكانة سامية مرموقة ، تقويها وتثبتها – فى الغالب – دوال التضرع والتوسل والاستعطاف .

وليس هدف الباحث – فى هذه الدراسة – ذكر الشواهد المختلفة للأغراض البلاغية للإسناد الخبرى ، وتحليلها ، لأن هذه الأغراض البلاغية تتشكل فى مقام " مقتضى الظاهر " ، تبعا لتفاعل التشكيل اللغوى للخطاب الأدبى مباشرة مع السياقات الداخلية ، والخارجية المختلفة المحيطة به ، وضغوط الناتج الدلالى للصياغة على المتلقى العام ، لتوجيه حركته الذهنية نحو استبطان الأهداف الجمالية القريبة والبعيدة للخطاب الأدبى .

---

[٥] سعد الدين التفتازانى: مختصر المعانى فى شرح تلخيص المفتاح ، القاهرة، مكتبة البابى الحلبى، سنة ١٩٦٥،ص٣٠

أضرُب الخبر ، والخروج على خلاف مقتضى الظاهر

المتلقى له حضور واضح فى التراث البلاغى العربى ، وكذلك الوظيفة الإفهامية (أو الطلبية) التى تتولد نتيجة لمراعاة الرسالة جانب المتلقى فى تشكيلها اللغوى .

وقد قسم البلاغيون الإسناد الخبرى بالنظر إلى المتلقى ، وحالته النفسية ، وحركته الذهنية ، إلى ثلاثة أقسام :

١ – الإسناد الخبرى الابتدائى :

وهو يتوجه إلى متلق خالى الذهن ، تتسم حركته الذهنية بالحيادية ، وعدم المعرفة المسبقة ، لذا تستغنى فيه الجملة الخبرية عن المؤكدات التى تقوى الحكم الإسنادى .

٢ – الإسناد الخبرى الطلبى :

وهو يتوجه إلى متلق مرتبك متحير ، تتسم حركته الذهنية بالتردد تجاه مضمون الحكم الذى يوجه إليه ، لذا تزود الجملة الخبرية بمؤكد واحد يقوى الحكم ، ويثبته فى ذهن المتلقى .

٣ – الإسناد الخبرى الإنكارى :

وهو يتوجه إلى متلق رافض مخالف ، تتسم حركته الذهنية بإنكار مضمون الحكم الذى يوجه إليه ، وعدم قبوله ، لذا تزود الجملة الخبرية بمؤكدين أو أكثر – تبعا لدرجة إنكار المتلقى – لتقوية الحكم ، وحث المتلقى على قبوله [٦] .

نوع الخبر	حالة المتلقى	التشكيل اللغوى
ابتدائى	الحيادية ، وعدم المعرفة المسبقة	الخلو من التأكيد والمؤكدات
طلبى	التردد ، والحيرة إزاء الحكم الإسنادى	التأكيد بمؤكد واحد
إنكارى	الرفض ، وإنكار الحكم الإسنادى	التأكيد بمؤكدين أو أكثر

ويصبح دور المتكلم هنا دورا آليا فى أغلب الأحيان ، يتجسد فى محاولة مطابقة التشكيل اللغوى لرسالته تبعا لمقتضى ظاهر حال المتلقى ، وتلك المطابقة الآلية تكاد تفقد الرسالة كثيرا من أهدافها الجمالية .

لذلك يطمح الخطاب الأدبى – كثيرا – إلى الخروج على خلاف مقتضى الظاهر ، لكسر رتابة الواقع الفعلى الخارجى ، وتنزيل المتلقى منزلة ذهنية اعتبارية تخالف منزلته الحقيقية ، وهنا يبرز دور المبدع واضحا ، وترتد اليه الأهداف البلاغية للخطاب ، والنوايا الجمالية التى تكمن فى صياغته المخالفة لمقتضى الظاهر . ويصبح حضور المتلقى حضورًا تخييليا ، لا يتشكل إلا من خلال المبدع ، وأهدافه الواضحة والخفية من وراء تشكيله اللغوى العدولى الذى يلفت انتباه المتلقى العام إلى البنية اللغوية نفسها

---

[٦] يراجع : السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ٩٦ .

obeikandi.com

، وبذلك تتحقق وظيفتها الشعرية . وتضفى المفارقة الواضحة بين الواقع الفعلى ، والواقع المغاير الذى تكوّنه الصياغة كثيرا من سمات " الشعرية " على الخطاب الأدبى .

فى بناء الإسناد الخبرى على خلاف مقتضى الظاهر يقوم المبدع بتشكيل البنية اللغوية على أساس أمور اعتبارية غير حقيقية ، وينتقل من الواقع الفعلى إلى الواقع الصياغى الاعتبارى ، فينزِّل المتلقى خالى الذهن منزلة المتلقى المتردد المتحيّر ، وهنا يصبح التشكيل اللغوى جسرا بين الواقعين (الفعلى والاعتبارى) ، فتأتى الجملة الاسمية المؤكدة التى تزيل التردد والحيرة ، وتجيب على التساؤلات الداخلية المثارة فى نفس المتلقى (الواقع الاعتبارى) ، عقب جملة فعلية – فى الغالب – تهيمن عليها الأفعال الطلبية (الأمر أو النهى) ، أو أساليب التحذير أو الإغراء ، أو النصح والتوجيه ، وهى تثير التساؤل فى نفس المتلقى عن الأسباب والعلل ، وتجعله مستشرفا لمعرفة النتائج والعواقب (الواقع الفعلى) .

كما فى قول الله تعالى : { **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** } [الحج:١]
وقوله تعالى لنوح عليه السلام { **وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** } [هود :٣٧]

وقول بشار بن برد : [من الخفيف]

بَكِّـرَا صَـاحِبَىَّ قَبْـلَ الـهَجِـيرِ ... إنَّ ذاكَ النَّجـاحَ فـى التَّبْكِـيرِ [٧]

وقول الفضل بن عبد الرحمن القرشى : [من الطويل]

فإيَّـاكَ إيَّـاكَ المِـراءَ فَإنَّـهُ إلـى الشَّـرِّ دَعَّـاءٌ ، وللشَّرِّ جَالِـبُ [٨]

الواقع الفعلى ← الواقع الاعتبارى
جملة فعلية ← جملة اسمية مؤكدة
الشاهد الأول : أمر ← جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ)
الشاهد الثانى : نهى ← جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ)
الشاهد الثالث : أمر ← جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ)
الشاهد الرابع : تحذير (الفعل محذوف تقديره : باعِدْ ، أو جَنِّبْ) ← جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ)

صيغ الأمر ، والنهى ، والتحذير تثير فى نفس المتلقى المحايد تساؤلات كثيرة عن الأسباب والنتائج ، لأن دلالات تلك الصيغ الطلبية قد تسير فى اتجاه معاكس لأمنيات المتلقى ورغباته الدفينة ، ومن ثم تثير فى نفسه حيرة وترددًا تجاه الاستجابة للطلب وتنفيذه ، وهنا يلتقط المتكلم تلك البوادر من المتلقى ، ويبنى عليها تشكيله اللغوى الذى يؤسس واقعا صياغيا اعتباريا مفارقا للواقع الفعلى للمتلقى ، فتنتقل الصياغة إلى الجملة الخبرية المؤكدة ، التى تزيل أى تردد أو حيرة ، وتجيب على أى تساؤل قد

---

(٧) القزوينى : الإيضاح (ضمن بغية الإيضاح) ، ٤٨/١ .

(٨) ابن هشام الأنصارى : أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الفكر، ط٥ سنة ١٩٦٧ ، ٣٣٦/٣ .

يساور المتلقى الحقيقى أو الاعتبارى .

وعندما تطمح الصياغة إلى إزالة واقع فعلى غير مرغوب فيه ، وتأسيس واقع صياغى اعتبارى لا يفارقه فقط ، بل يحل محله تماما ، يتم تنزيل المتلقى المحايد الذى لا ينكر مضمون الخبر منزلة المنكر له ، المستبعد لحدوثه .

كما فى قول الله تعالى : { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ** (١٢) **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ** (١٣) **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** (١٤) **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** (١٥) **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** } [المؤمنون : ١٢-١٦]

البنية السطحية : الإنسان ، جعلناه ، أنشأناه ←→ إنكم

غائب ←→ مخاطب (*)

البنية العميقة : الإنسان ، جعلناه ، أنشأناه ← إنهم

غائب ← غائب

واقع فعلى حقيقى ← واقع اعتبارى

المتلقى خالى الذهن ، غير منكر ← المتلقى منكر مستبعد

الحديث عن الإنسان فى مراحل الخلق ، وأطواره المختلفة ، جاء بصيغ الغياب (الإنسان ، جعلناه ، أنشأناه) ، وذلك فى سياق واقع حقيقى مسلم به ، غير مشكوك فيه . وجاء الحديث عن الإنسان فى مرحلة الموت بصيغة الخطاب (إنكم) ، ليجسد انتقالا وعدولا صياغيا ملحوظا على مستوى البنية السطحية ، ومع أن الموت حقيقة مؤكدة ، يسلم بها كل متلق ، فإن التصرف الفعلى إزاءه ينم عن المماطلة وعدم الاهتمام ، واستبعاد وقوعه ، كأنهم مخلدون ، وذلك يقترب من الإنكار ، لذا جاء الانتقال إلى صيغة الخطاب التى توحى بالمواجهة التوبيخية التى تهدف إلى إزالة هذا السلوك الخاطئ تجاه الموت ، والاستعداد له ، وهدم الواقع الفعلى الذى يقوم على هذا السلوك الخاطئ ، ومن هنا جاءت صياغة الجملة الخبرية (إنكم بعد ذلك لميتون) هادمة لذلك الواقع الفعلى ، ومكونة لواقع صياغى اعتبارى ، يقوم على استحضار متلق اعتبارى منكر يوافقه توكيد الحكم بأكثر من مؤكد (إن ، واللام ، واسمية الجملة) .

وفى ذلك لفت معنوى للمتلقى إلى وجوب طرح عدم المبالاة تجاه الموت ، والاستعداد له كحقيقة يقينية يمكن أن تحدث فى أى وقت ، وهذا الالتفات المعنوى يوازى الالتفات الصياغى فى البنية السطحية .

(*) الاسهم المتقابلة تشير إلى تصادم الضمائر فى المستوى السطحى للصياغة ، والاتجاه الأحادى للسهم يشير إلى توافق الضمائر فى المستوى العميق .

obeikandl.com

ومثله قول حَجْل بن نَضْلَة الباهلى : [من السريع]

جَـاءَ شَـقِيقٌ عارضًـا رُمْحَـهُ إنَّ بَنَـى عَمِّـكَ فِيهِـمْ رِمَـاحْ

هَـلْ أَحْـدَثَ الدَّهْـرُ لَنَـا ذِلَّـةً ← أمْ هَـلْ رَمَـتْ أمُّ شَـقِيقٍ سـلاحْ ؟ [٩]

البنية السطحية : شقيق ← عمكَ

غائب ← مخاطب

البنية العميقة : شقيق ← عمه

غائب ← غائب

واقع فعلى ← واقع اعتبارى

المتلقى خالى الذهن المتلقى منكر

تصدير الصياغة بالفعل الماضى (جاء) ، والحديث عن المتلقى الخاص (شقيق) بصيغة الغياب (الاسم الظاهر من قبيل الغياب) ، يجعل السياق الروائى مهيمنا على الصياغة ، وذلك ينفى الحضور المباشر للمتلقى الخاص ، استهجانا لتكبره وإدلاله بشجاعته ، وإنكارا لتصرفه الخاطئ حين وضع رمحه عَرْضا دليلا على اعتداده بنفسه ، واعتقاده بعدم قدرة بنى عمه على التصدى للحرب ، كأنهم – فى نظره – عزل ليس مع أحد منهم رماح ، مع أنه فى واقع الأمر يعلم أنفة قومه ، وحميتهم ، وشجاعتهم .

وانتقلت الصياغة – سريعا – إلى صيغة الخطاب (إن بنى عمك) ، لتعكس المسارعة إلى الإنكار والتوبيخ ، وتسجيل انفعال الذات المبدعة إزاء هذا التصرف الخاطئ . وجاءت صياغة الجملة الخبرية لتشكل واقعا صياغيا اعتباريا ، يقوم على استحضار متلق اعتبارى منكِر ، يعادل التصرف الخاطئ من المتلقى الخاص (الحقيقى) ، ويوافقه تأكيد الحكم بأكثر من مؤكد [إن ، والجملة الاسمية المؤداة بطريق القصر (فيهم رماح)] ، وفى ذلك لفت معنوى للمتلقى الخاص بأن يعيد صياغة مواقفه وتصرفاته بما يتوافق مع واقعه الحقيقى الباطنى ، ويتبرأ من تصرفاته الظاهرية التى تخالف هذا الواقع

وقد أمعنت الصياغة فى تسجيل استهجان الذات المبدعة واستنكارها ، عن طريق هيمنة الاستفهام على البيت الثانى ، وهو يولد دلالة الإنكار والتوبيخ والتعنيف ، ويوجه المتلقى العام الناتج الدلالى للاستفهام إلى التصرف الظاهرى الخاطئ للمتلقى الخاص ، وهو بذلك يشارك الذات المبدعة فى موقفها الانفعالى .

وأسهمت دوال القرابة (بنى عمك ، وأم شقيق) فى تعميق جانب المفارقة بين الواقع الحقيقى الباطنى للمتلقى (علم شقيق بشجاعة قومه) ، والواقع الصياغى الاعتبارى (إنكار شقيق بتصرفاته

---

[٩] القزوينى : الإيضاح ، ٤٩/١ ، وعبد الرحيم بن أحمد العباسى : معاهد التنصيص ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ، عالم الكتب ، طبعة مصورة عن المكتبة التجارية بالقاهرة ، سنة ١٩٤٧ ، ٧٢/١ .

الظاهرية شجاعة قومه) ، فالقرابة تستدعى التواضع ، ولين الجانب ، ولكن المتلقى الخاص – على خلاف ذلك – سار فى طريق الكبر والغرور وبذلك تتكاثف المفارقة التى تهدف إليها الصياغة ، وتبرز على عدة مستويات :

المستوى الصياغى : الانتقال من صيغة الغياب إلى صيغة الخطاب

حال المتلقى الخاص : الانتقال من الواقع الباطنى الحقيقى (العلم بشجاعة القوم) إلى الواقع الاعتبارى الظاهرى (إنكار شجاعتهم) ←

المستوى الاجتماعى (الفرد – المجموع) : القرابة (المجموع) تواضع وعطف

→ المتلقى الخاص (الفرد) تكبر وغرور

وتنصبّ دلالة الهدم والتدمير (النفى ، والإنكار ، والتوبيخ) على الواقع الاعتبارى بكل مكوناته ومظاهره ، فى محاولة جادة متكررة لإعادة المتلقى إلى الواقع الحقيقى ، الغائب عن الصياغة ، الحاضر فى ذهن المتلقى عن طريق المقابلة الثنائية .

ويبرز عنصر المفارقة الصياغية أيضا فى تنزيل المتلقى المنكر منزلة المتلقى غير المنكر (خالى الذهن ، والمتردد) ، حيث تتجاهل الصياغة حالة الإنكار ، ولا تهتم بالواقع الفعلى للمتلقى ، وتستحضر متلقيا اعتباريا يغاير المتلقى الخاص ، وتقيم عليه واقعا اعتباريا يفارق الواقع الفعلى ، ويتكرر هذا الأسلوب كثيرا فى الخطاب القرآنى حين الحديث عن الوحدانية ، ومقام الألوهية ، وتنزيه الله ، فيأتى الإسناد الخبرى خاليا من أى تأكيد ، مع كثرة المشركين والكافرين والجاحدين ، ولكن الخطاب القرآنى لا يقيم وزنا لإنكارهم وجحودهم ، حيث لا أساس له من الصحة أو الحقيقة ، ويأتى التشكيل اللغوى خاليا من المؤكدات ، ليقيم واقعا اعتباريا جديدا ينبغى أن يسود ، ويهدم الواقع الفعلى المبنى على الأوهام والخيالات .

{ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [البقرة :١٦٣] ، **{ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ }** [الجمعة:١، والتغابن :١] ، **{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }** [الحديد :١، والحشر :١ والصف:١]

ومنه قول الفرزدق لـ " جرير " : [من الكامل]

إِنَّـــا لَنَضْـرِبُ رَأْسَ كـلِّ قَبِيلَـةٍ وَأَبُـوكَ خَلْـفَ أَتَانِـــهِ يَتَقَمَّـــلُ

تحضر الذات المبدعة حضورا طاغيا فى الشطر الأول من البيت عن طريق ضمير المتكلم (نا)، والضمير المستتر (نحن) ، وذلك يدل على الاندماج الكامل بين الذات المبدعة الفردية ، والذات الجمعية (القبيلة) ، وبروز الوظيفة الانفعالية يكثف دلالة الفخر ، ويعمق إحساس الثقة بالنفس وبالقبيلة . وتأكيد الجملة الخبرية فى الشطر الأول بأكثر من مؤكد (إن ، واللام) لا يتجه إلى أى متلق منكر حقيقى أو اعتبارى ، لأن ذلك يضعف الدلالة ، ويشكك فى ناتجها ، وإنما يرتد إلى الوظيفة الانفعالية ثانية ليكثف من حضور الذات المبدعة ، وزيادة انفعالها بالحكم الإسنادى الدال على تسنمها ذرى المعالى ، وارتفاعها

فوق كل الرؤوس .

وتسيطر الوظيفة الإفهامية على صياغة الشطر الثانى ، حيث تتوجه الصياغة إلى متلق خاص (جرير) ، ولا تبالى الصياغة الخبرية بموقف الإنكار الشديد الذى يقابل به المتلقى الخاص مضمون الخبر ، ولا تهتم بالواقع الفعلى المترتب عليه ، ولكنها تشكل واقعا صياغيا اعتباريا يقوم على اعتبار مضمون الخبر حقيقة ثابتة ينبغى أن تقابل بالتسليم والإذعان ، لا بالإنكار والاستهجان ، لذلك جاء التشكيل اللغوى للجملة الخبرية خاليا من أى تأكيد (وأبوك خلف أتانه يتقمل) وتسهم دوال الشطر الثانى فى إبراز دلالة الهجاء والتهكم بالمتلقى الخاص وبذلك يتعاظم جانب المفارقة ، ويتسع نطاق هيمنتها على صياغة الشطرين على المستوى اللفظى والمعنوى :

الشطر الأول	الشطر الثانى
الوظيفة الانفعالية	الوظيفة الإفهامية
حضور الذات المبدعة	حضور المتلقى الخاص
دوال السمو والمعالى	دوال الانحطاط والدنايا
دلالة الفخر	دلالة التهكم والهجاء

وهكذا يتشكل الناتج الدلالى فى بناء الأسلوب على خلاف مقتضى الظاهر فى أضرب الخبر ، من عنصر المفارقة العميقة فى الصياغة ، عن طريق صدام الواقع الاعتبارى التخييلى مع الواقع الفعلى الحقيقى ، أو مغايرته له ، ومن خلال ضغوط الدلالة على المتلقى الخاص فى الصياغة يمكن للمتلقى العام استبطان الناتج الدلالى للصياغة ، والتفاعل مع أدواته ، ونتائجه الجمالية .

تخريج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر

أولا : وضع الضمير موضع الاسم الظاهر :

الضمير دال غير مكتمل الدلالة ، لأنه لا يشير إلى مدلول مرجعى مباشر ، ولكنه يشير ، إلى الشئ ، أو إلى الشخص المقصود بحسب موقعه فى عملية الاتصال اللغوى ، لذلك لا يستطيع الضمير أن يؤدى دوره منفردا ، وإنما فى وسط تعبيرى مركب " إذ الضمير بنفسه ليست له دلالة مرجعية ، إنما تتحدد دلالته بحضور المرجع الحالى أو المقالى ، أى أنه دال غير مكتمل الدلالة ، ويحوج المتلقى إلى التأمل وتجاوز المستوى المباشر ، والغوص فى البنية التحتية ، لإدراك المرجع الذى يفسره " [١٠]

تحبذ البنية المثالية أن يكون الضمير مسبوقا بقرينة لفظية أو حالية يعود عليها ، لتكون دلالة الكلام واضحة ، ولكن اللغة الأدبية تعدل – كثيرا – عن هذا الأصل المثالى وتبنى صياغتها فى أساليب كثيرة على خلافه ، فيأتى الضمير أولا ، ثم يفسر بمتأخر عنه ، أو لا يفسر استنادا إلى فهم المتلقى ، أو لإشراكه فى توليد الناتج الدلالى . وعندما تهيمن الضمائر على الصياغة ، فإنها تتجه ناحية الغموض الفنى ، وحجب المعنى المباشر ، وتنفتح على احتمالات دلالية متعددة ، تتيح للمتلقى حضورا طاغيا فى إتمام الدائرة الدلالية للصياغة ، وتحقيق وظيفتها الجمالية .

ومن الأساليب التى تخالف بنيتها البنية الموقعية المثالية للضمير :

١ – ضمير " المجهول " :

وهى تسمية أطلقها بعض النحاة على ما يعرف بـ " ضمير الشأن أو القصة " ، وقد آثرها الباحث لأنها تتوافق مع دلالة الإبهام والغموض التى تسيطر على الصياغة حين يتصدرها ضمير المجهول (أو الشأن) .

وهذا الضمير يتوغل فى العدول عن البنية الأصلية المثالية من نواحٍ كثيرة ، فهو – كما قال ابن هشام – مخالف للقياس من خمسة أوجه :

١ – عَوْدُه على ما بعده لزوما ، إذ لا يجوز للجملة المفسرة له أن تتقدم هى ، ولا شئ منها عليه

٢ – أن مفسّره لايكون إلا جملة ، ولا يشاركه فى هذا ضمير .

٣ – أنه لا يتبع بتابع ، فلا يؤكد ، ولا يعطف عليه ، ولا يبدل منه .

٤ – أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء ، أو أحد نواسخه .

٥ – أنه ملازم للإفراد ، فلا يثنى ، ولا يجمع [١١]

ونظرا للخصائص الشكلية العدولية التى يتمتع بها ضمير المجهول ، من حيث الموقع والبنية ،

---

[١٠] د / محمد عبد المطلب : تقابلات الحداثة فى شهر السبعينيات ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٥، ص ٦٥ ، ٦٦ .

[١١] ابن هشام الأنصارى : مغنى اللبيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ، المكتبة العصرية ، سنة ١٩٨٧ ، ٢/٤٩٠ ، ٤٩١ .

obeikandi.com

فهو على اختلاف أحواله إنما يرد على جهة المبالغة فى تعظيم القصة (دلالة الصياغة) ، وتفخيم شأنها [١٢] .

ويكتمل الناتج الدلالى للبنية على مرحلتين :

١ – مرحلة الإبهام (الإضمار)

٢ – مرحلة التفسير

وكلتا المرحلتين تسهم فى زيادة تفاعل المتلقى مع الصياغة ، لأن الإبهام يجعل المتلقى متطلعا إلى الفهم والتوضيح ، ومتشوقا إلى إتمام الدائرة الدلالية ، ، وتأتى مرحلة التفسير ليكتمل بها الناتج الدلالى للبنية ، وتسكن بها الحركة الذهنية عند المتلقى المتطلع دائما إلى الكشف والوضوح بعد الإبهام والغموض .

" ولأجل ما فيه (أى ضمير المجهول) من الاختصاص بالإبهام لا يكاد يرى إلا فى المواضع البليغة المختصة بالفخامة " [١٣] .

كما فى قول الله تعالى : **{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** [١] **اللَّهُ الصَّمَدُ }** [الإخلاص :١،٢]

البداية بضمير المجهول (الشأن) ، يكثف الغموض والإبهام ، لعدم وجود دلالة مرجعية متقدمة تزيل هذا الإبهام ، وذلك يزيد من ترقب المتلقى وتفاعله مع الصياغة لكشف هذا الإبهام . ويأتى الكشف والوضوح فى جملة تفسيرية تالية (الله أحد) ، ومضمون الجملة معنى كبير ، ومدلولها عميق الجذور ، حيث إنه محور الصراع فى تارخ البشرية ، لذلك اقتضى الأمر تهيئة النفوس لتلقيه بتلهف وتشوق . وعمدت الصياغة إلى تأكيد هذا المعنى وتقريره فى الأذهان عن طريق تكرار الاسم الظاهر ، اسم الله الأعظم (الله الصمد) – وكان الأصل يقتضى وجود الضمير – لإشاعة هيبته وجلاله فى النفوس .

وقول الشاعر : [من الوافر]

هِـىَ الدُّنْيـا تَقُـولُ بِمِـلْءِ فِيْهـا حَـــذَارِ مِـــنْ بَطْشِـى وَفَتْكِـى

فَـــلاَ يَغْرُرْكُـــمُ مِنِّـى ابْتِســـامٌفَقَوْلِـى مُضْـحِكٌ والفِعْـلُ مُبْكِـى

وكذلك يرد ضمير المجهول (الشأن) فى المواضع التى تنتقل فيها الصياغة انتقالات مفاجئة للمتلقى ، وهى انتقالات تتسم بالحدة والغرابة من ناحية المعنى ، الذى يصل إلى المفارقة التامة للمعانى السابقة ، وهنا يأتى ضمير المجهول (القصة) معادلا لفظيا للانتقال المعنوى الحاد .

كما فى قول أبى خراش الهذلى فى أبياته التى ذكر فيها مقتل أخيه عروة : [من الطويل]

فَوَاللّـهِ ما أنْسَـى قَتِيـلاً رُزِئْتُـهُ بِجَانِبِ قُوسَيِ ما مَشَـيْتُ عَلَى الأَرْضِ

---

[١٢] العلوى : الطراز ، ١٤٢/٢ .

[١٣] المرجع السابق : ١٤٣/٢ .

عَـلَى أنَّهــا تَعْفُـو الكُلُـومُ وإنَّمــا نُوَكَّـلُ بِالأدْنَـى وَإنْ جَـلَّ ما يَمْضِـىَ [١٤]

ابتداء البيت الأول بالقسم " فوالله " يضفى دلالة التوكيد على الصياغة ، ويشير إلى سيطرة مشاعر الحزن والأسى على الذات المبدعة ، واستبعاد تسلل النسيان إلى ذكرى الفقيد ، أو الانشغال بأى شئ عنه . ولكن يأتى الانتقال المعنوى المفارق سريعا فى البيت التالى مباشرة ، وهو انتقال دلالى غريب بالنسبة إلى مدلول البيت الأول ، حيث يشير إلى أن الآلام مهما كانت قاسية فإنها لا تستعصى على الأيام التى تبتلعها وتطويها ، ويشير أيضا إلى أن الإنسان مستهدف للأحداث ، وأن تعاقبها يجعل المرء فى شغل بالثانية عن الأولى [١٥] ، وذلك يقوى الإحساس بإمكانية تلاشى ذكرى القتيل ، ونسيانه . ومن هنا يأتى ضمير المجهول (أنها) معادلا صياغيا يخفف من حدة الانتقال الدلالى المفاجئ ، لأن ناتجه الدلالى يكتمل وقعه فى ذهن المتلقى على مرحلتين :

١ – مرحلة الحيرة (الإبهام)

٢ – مرحلة الهدوء نتيجة للكشف والوضوح (التفسير) .

ومثله قول أبى تمام فى رثاء غالب بن السَّعْدى : [من الطويل]

مَضَى صَاحِبى واسْتَخْلَفَ البَثَّ والأَسَى عَـلَىَّ فَـلِى مِنْ ذا وَهَـا ذاكَ صـاحِبُ

عَجِبْتُ لِصَـبْرى بَعْـدَهُ وَهْـوَ مَيِّـتٌ وكُنْتُ امْرءًا أبْكِـى دَمًـا وَهْـوَ غائـبُ

عَلَى أنَّـها الأيّـامُ قَـدْ صِـرْنَ كُلُّهـا عَجائـبَ حـتَّى لَيْـسَ فِيـها عَجائـبُ [١٦]

<u>نِعْمَ ، وبِئس :</u>

رأى الكوفيون أن " نعم وبئس " اسمان مبتدآن ، ورأى البصريون أنهما فعلان ماضيان لا يتصرفان [١٧] .

ورأى ابن جنى أن منع الفعلين (نعم وبئس) من التصرف – كبقية الأفعال – غرضه المبالغة ، وتكثيف الدلالة المتولدة عنهما ، فقال : " اطراد التصرف فى الأفعال نحو : قام ، ويقوم ، وقم ، وما كان مثله . فإذا بالغوا وتناهوا منعوه من التصرف ، فقالوا : نعم الرجل وبئس الغلام ، فلم يصرفوهما ، وجعلوا ترك التصرف فى الفعل الذى هو أصله ، وأخص الكلام به أمارة للأمر الحادث له ، وأن حكما من أحكام المبالغة قد طرأ عليه " [١٨] .

وقد أخذ البلاغيون برأى البصريين فى اعتبارهم " نعم وبئس " فعلين لا يتصرفان ، واستغلوا كل ما يترتب على ذلك من نتائج شكلية ودلالية تؤكد مبدأ العدول فى التشكيل اللغوى ، وقد انتقى البلاغيون من

---

[١٤] أبو تمام : ديوان الحماسة (برواية الجواليقى) تحقيق د / عبد المنعم صالح ، القاهرة ، هيئة قصور الثقافة ، ١٩٩٦ ، ٢٢٣/١ ، وقوسى : المكان الذى قتل فيه أخوه .

[١٥] يراجع : د/ محمد أبو موسى: خصائص التراكيب، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٤ سنة ١٩٩٦، ص٢٤٣،٢٤٢ بتصرف

[١٦] أبو تمام : ديوانه (بشرح التبريزى) ، تحقيق د/محمد عبده عزام ، القاهرة، دار المعارف، ط٣ سنة ١٩٨٣، ٤٢/٤

[١٧] ابن الأنبارى : الإنصاف فى مسائل الخلاف ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٦١ .

[١٨] ابن جنى : الخصائص ، ٢٤٧/٣ .

مذاهب الإعراب ما يحقق هدفهم فى تصعيد صفة الانحراف فى أسلوب المدح أوالذم .

يقول القزوينى : " وقد يخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر ، فيوضع المضمر موضع المظهر ، كقولهم ابتداء من غير جرى ذكر لفظا أو قرينة حال : " نعم رجلا زيد وبئس رجلا عمرو " مكان : نعم الرجل ، وبئس الرجل . على قول من لا يرى الأصل : زيد نعم رجلا ، وعمرو بئس رجلا" [١٩]

هناك صورتان لأسلوب المدح أو الذم ، إحداهما يضمر فيها الفاعل ، وهى : (نعم رجلا زيدٌ) والأخرى لا يضمر فيها الفاعل ، وهى : (نعم الرجل زيد) . وقد استخدم البلاغيون الصورة الأولى للدلالة على حلول المضمر محل المظهر ، وجعلوا الصورة الثانية بمثابة البنية العميقة للصورة الثانية ، أى أن الرجل فى (نعم الرجل زيد) قد أضمر فى الفعل (نعم) ، ولم يظهر إلا تمييزه النكرة ، فصارت الجملة : (نعم رجلا زيد) ، وبذلك يتوفر قدر كبير من الإبهام والغموض فى التشكيل اللغوى لأسلوب المدح أو الذم على هذه الصورة ، لوجود مستويين من الانحراف عن الأصل المثالى :

الأول : حلول الضمير محل الاسم الظاهر

الثانى : مجئ الضمير سابقا بغير مرجع متقدم (قولى أو حالى) يعود إليه .

وقد اختار البلاغيون الآراء النحوية التى تبرز التشكيل الانحرافى للأسلوب ، فالمستوى الأول من الانحراف لا يتحقق إلا بالقول بإضمار الفاعل فى الفعل (نعم أو بئس) ، لذلك تجاهل البلاغيون رأى بعض النحاة فى أن الفاعل فى : (نعم رجلا زيد) هو المخصوص بالمدح (أو الذم) ، وأنه لا ضمير فى الفعل .

أما المستوى الثانى من الانحراف ، فإنه لا يتحقق إلا بإعراب يبقى على المخصوص بالمدح أو الذم فى آخر الجملة ، بإعرابه خبرا لمبتدأ محذوف ، فيكون الضمير الفاعل عائدا على معقول معهود فى الذهن غير مذكور فى العبارة . ذلك أن إعراب المخصوص مقدما فى الرتبة (أى مبتدأ مؤخرا) ، وبقية الجملة خبرا مقدما ، من شأنه أن يسقط هذا المستوى من الانحراف بتقديم الضمير بغير مرجع يعود إليه ، وهذا ما جعل البلاغيون يستبعدون هذا التأويل الإعرابى ، ويرغبون عنه فى تحليلهم للتشكيل اللغوى لأسلوب المدح أو الذم [٢٠] .

ثانيا : وضع الاسم الظاهر موضع الضمير :

الاسم الظاهر له طبيعة دلالية خاصة ، ناتجة عن احتفاظه بانعكاسات دلالية من الشئ الذى يشير إليه ، " فإذا كان الضمير يعطى إشارة ذهنية إلى العائد عليه ، هذه الإشارة تحضره فى النفس ، إلا أن قدرا كبيرا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظا به ، ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عنه ، لأن الإشارة تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته الدلالية المختلفة جد الاختلاف ، والتى اكتسبها فى قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف " [٢١]

---

[١٩] القزوينى : الإيضاح ، ١٤٧/١ .

[٢٠] د / عبد الحكيم راضى : نظرية اللغة فى النقد العربى ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ بتصرف .

[٢١] د / محمد أبو موسى : خصائص التراكيب ، ص ٢٤٨ .

وحين تعدل الصياغة عن البنية اللغوية المثالية ، ويتم وضع الاسم الظاهر موضع الضمير خلافا لمقتضى الظاهر ، فإن ذلك الإجراء الصياغى يبرز الوظيفة الشعرية للبنية اللغوية ، ويفجر دلالات وجماليات كثيرة ، يرجع تأثيرها إلى الخصوصية الدلالية للاسم الظاهر الذى وضع موضع الضمير ، وإلى تأثير السياق الخارجى ، والمتلقى الخاص فى البنية اللغوية ، وإلى تفاعل المتلقى مع التشكيل اللغوى والظروف المحيطة به .

فإذا كان المظهر اسم إشارة ، أفاد كمال العناية بتمييزه لاختصاصه بحكم (خبر) بديع عجيب الشأن ، كقول ابن الرواندى (أحمد بن يحيى) [من البسيط]

كــمْ عاقِـلٍ عاقـلٍ أعْيَـتْ مَذاهِبُـهُ وَجاهِـلٍ جاهِـلٍ تَلْقــاهُ مَرْزُوقــا

هــذا الَّذى تَـرَكَ الأوْهــامَ حائِـرةً وصَـيَّرَ العالِــمَ النِّحْرِيـرِ زنديقــا (٢٢)

مضمون البيت الأول يبرز مفارقة عميقة تجرى على خلاف منطق الأشياء والأحداث – وإن كانت مألوفة فى دنيانا – وهى : معاناة العاقل كثيرا فى تحصيل رزقه ، وفلاح الجاهل كثيرا فى تحصيله . ويعود اسم الإشارة (هذا) إلى ذلك المضمون المبنى على المفارقة وهو معنى غير محسوس، والمقام فيه للإضمار ، ولكن الصياغة آثرت وضع المظهر موضع المضمر لتمييزه وتحديده، واختصاصه بهذا الحكم الغريب . وتهيئة المتلقى لمشاركة الذات المبدعة فى شعور التعجب والحيرة أمام هذا الواقع الغريب المفارق لمنطق الأشياء .

وقد تتجه دلالة الصياغة إلى المتلقى الخاص فى اتجاهين مختلفين :

الأول : التهكم به ، والسخرية منه بالتنبيه على كمال بلادته بأنه لا يميز بين المحسوس بالبصر وغيره

الثانى : المدح والتعظيم ، بالتنبيه على كمال فطانته ، وبعد غور إدراكه بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره .

وينتج اسم الإشارة هذه الدلالات حين يوضع موضع الضمير ، لأنه بأصل وضعه اللغوى يشير إلى شئ محسوس خارجى ، والضمير يعود إلى مرجع معنوى أو محسوس .

وقد تعمد الصياغة إلى إبراز دلالة التجسيم والتشخيص فى الأشياء المعنوية لا عن طريق المجاز والتخييل ، ولكن بواسطة التشكيل اللغوى ، عن طريق التبادل بين الضمير واسم الإشارة ، واستغلال ثنائية الحضور والغياب فى دلالة كل منهما

كما فى قول الشاعر (فى غير باب المسند إليه) : [من الطويل]

تَعالَلْـتِ كــىْ أَشْـجَى وَمَـا بِكِ عِلَّــةٌ تُرِيدِيـنَ قَتْلِـى ، قَـدْ ظَفِـرْتِ بِذلِـكِ (٢٣)

---

(٢٢) السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١١١ ، والقزوينى : الإيضاح ، ١٤٨/١ .

(٢٣) السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١١١ ، والقزوينى : الإيضاح ، ١٤٨/١ ، ١٤٩ .

البنية السطحية : قتلى ← بذلك

اسم ظاهر ← اسم ظاهر (إشارة)

البنية المثالية : قتلى ← به

اسم ظاهر ← ضمير

المتلقى الخاص له حضور لغوى زائد عن حضور الذات المبدعة

المتلقى الخاص : تعاللتِ ، بكِ ، تريدين ، ظفرتِ

الذات المبدعة : أشجى ، قتلى

ومع ذلك فالوظيفة الانفعالية مهيمنة على دلالة التشكيل اللغوى فى البيت ، وساعد على ذلك وضع اسم الإشارة (ذلك) موضع الضمير ، لأنه جسّم معاناة الذات المبدعة ، وأبرزها فى صورة محسوسة ملموسة يشار إليها ، لم يكن الضمير قادرا على إبرازها ، وتجسيم المعاناة وتكثيف الانفعالات يزيد من تفاعل المتلقى العام مع الصياغة ، وتجاوبه مع الوظيفة الانفعالية التى يبرزها التشكيل اللغوى ، بما يعكس نجاح الصياغة فى أداء وظيفتها الشعرية والجمالية .

وإذا كان الاسم الظاهر غير اسم إشارة ، فوضعه موضع الضمير ينتج دلالات كثيرة ، يؤثر فى إنتاجها السياق ، والمبدع ، والمتلقى ، من هذه الدلالات :

زيادة التقرير والتمكين .

وذلك إذا اتجه السياق إلى الاعتناء بالمسند إليه ، وتقرير دلالته ، وتمكينها فى النفوس ، إما بالتعظيم والتفخيم ، كما فى تكرار لفظ الجلالة (الله) كثيرا فى القرآن الكريم ، لتقرير مقام الألوهية ، وتمكين هيبتها فى النفوس .

كالآية الكريمة التى أوردناها سابقا – : **{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ }** [الإخلاص :١،٢]

البنية السطحية : الله ← الله

اسم ظاهر ← اسم ظاهر

البنية الأصلية :الله ← هو

اسم ظاهر ← ضمير

أو بالتقبيح والتوبيخ ، كما فى قول الله تعالى : **{ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }** [البقرة : ٥٩]

البنية السطحية : الذين ظلموا على الذين ظلموا

اسم ظاهر اسم ظاهر

البنية الأصلية : الذين ظلموا ← عليهم

اسم ظاهر ضمير

الدلالة المباشرة للتشكيل اللغوى تتجه إلى المتلقى الخاص (بنى إسرائيل) لزيادة تقبيح أمرهم ، والتهويل من ظلمهم بتكرار دال الظلم مرتين ، والإشارة إلى أن العقاب الذى حل بهم وقع بسبب ظلمهم [٢٤] . وتنبثق من الصياغة دلالة تعريضية تتجه بؤرتها إلى المتلقى العام لترهيبه وتحذيره من الظلم ، لأن عاقبته وخيمة .

أو بالتهويل والتفخيم والتخويف ، كما فى قول الله تعالى : { **الْحَاقَّةُ** [١] **مَا الْحَاقَّةُ** [٢] **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ** } [الحاقة : ١-٣]

البنية السطحية : الحاقة ← ما الحاقة ؟

اسم ظاهر ← اسم ظاهر

البنية الأصلية : الحاقة ← ما هى ؟

اسم ظاهر ← ضمير

تتوافق البنية اللغوية مع سياق التهويل والتفخيم والتخويف فى عدة مستويات : مستوى التشكيل الصوتى ، والتركيبى ، الدلالى .

فعلى مستوى التشكيل الصوتى ، تم استغلال صفات الحروف وإمكاناتها الصوتية لتعكس مدلول (الحاقة) وتزيد من تهويله ، فالحاء : صوت حلقى احتكاكى ، مهموس ، " وتتكون الأصوات الاحتكاكية بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين فى موضع من المواضع ، بحيث يحدث الهواء فى خروجه احتكاكا مسموعا " [٢٥]

ثم يتلوه مد طويل بمقدار ست حركات فى التلاوة (مدّ كلمى مثقَّل) ، يعطى للهواء وللصوت فرصة واسعة للامتداد والخروج ، ويعطى للذهن فرصة للتأمل والتدبر فى المدلول .

ويختتم أصل الكلمة بـ (القاف) ، وهى : صوت لهوى ، انفجارى ، مهموس ، " وتتكون الأصوات الانفجارية بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما فى موضع من المواضع وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ، ثم يطلق سراح المجرى الهوائى فجأة ، فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا " [٢٦]

فضيق الهواء (الحاء) ، وامتداده (المد) ، وتوقفه ثم انفجاره (القاف) ، يكاد يكون انعكاسا دلاليا لمراحل القيامة (الحاقة) ، من طول استتار وخفاء ، ثم علامات وأمارات ، ثم الانفجار العظيم بعد النفخ فى الصور .

وعلى مستوى التركيب ، استغلت الصياغة بنية الحذف منذ البداية ، فحذف المنعوت (القيامة أو الساعة) ، لتركيز الانتباه على مدلول النعت (الحاقة) عن طريق الحضور ، واستغلال مدلول المنعوت

---

[٢٤] يراجع : الزمخشرى : الكشاف ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت ، ٧١/١ ، وأحمد بن المنير : الانتصاف (على هامش الكشاف) ، ٧٢/١ .

[٢٥] د / كمال بشر : الأصوات العربية ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٩٠ ، ص ١١٨ ، ١٢١ .

[٢٦] المرجع السابق : ص ١٠٠ ، ١٠٩ .

(القيامة) غيابيا بواسطة الاستدعاء الذهنى .

وأسهم تكرار الاسم الظاهر (الحاقة) بخواصه الصوتية المتميزة ، ووضعه موضع الضمير فى إنتاج دلالة التفخيم والتهويل من شأن القيامة وأهوالها ، وساعد الأسلوب الإنشائى الاستفهامى (ما الحاقة ؟) ، وتكراره ، فى تكثيف دلالة التهويل والتفخيم ، وإبراز دلالة التخويف والترهيب ، وتوجيه بؤرتها ناحية المتلقى [٢٧]

ومثله قول الشاعر : [من الخفيف]

لا أَرَى المَوتَ ، يَسْبِقُ الموتَ شَيءٌ نَغَّصَ المـوتُ ذا الغِنـى والفَقِيـرا [٢٨]

البنية السطحية : الموت ← (يسبق) الموت

اسم ظاهر ← اسم ظاهر

البنية الأصلية : الموت ← يسبقه

اسم ظاهر ← ضمير

وقد تسيطر الوظيفة الانفعالية على الصياغة ، فيرتد الغرض الجمالى إلى الذات المبدعة كما فى سياق التضرع ، والتذلل ، والاستعطاف ، فى مثل قول إبراهيم بن أدهم : [من الوافر]

إلَهِـى عَبْـدُكَ العاصِـى أتاكـا مُقِـرًّا بالذنـوب وَقَـدْ دَعاكـا

فـإنْ تَغْفِـرْ ، فَأَنْـتَ لِـذاكَ أَهْـلٌ وإنْ تَطْـرُدْ ، فمَـنْ يَرْحـمْ سِـواكا [٢٩]

تسيطر الوظيفة الانفعالية على الصياغة ، وتوجه دلالتها الكلية لخدمة انفعالات الذات المبدعة ، على الرغم من عدم حضورها بكثافة فى التشكيل اللغوى ، وذلك مناسب لسياق التضرع ، والتذلل ، والاستعطاف . وابتداء الصياغة بدال الألوهية المضاف إلى ياء المتكلم (إلهى) ، يوجهها ناحية الدلالة الدعائية ، ويبرز " الوظيفة التبجيلية " التى تضع أمام المتلقى – منذ البداية – مقامين متباعدين صياغيا ودلاليا :

مقام الألوهية : يشار إليه بدال الألوهية (إلهى) ، وضمائر الخطاب البارزة والمستترة ، والمتصله والمنفصلة فى (عبدك ، أتاكا ، دعاكا ، تغفر (أنت) ، أنت ، تطرد (أنت) ، سواكا) ، وهى توحى بالحضور المباشر والمهيمن فى كل الأحوال .

مقام العبودية : يشار إليه بداية بضمير المتكلم فى (إلهى) ، وهى بداية مهمة تبعث الأمل والرجاء فى الذات المبدعة الآثمة الذليلة ، لأنها تربطها بمصدر العفو والمغفرة ، ثم تخرج الذات المبدعة من الصياغة بواسطة ضمائر الغياب ، ووضع الاسم الظاهر (عبدك) موضع الضمير (أنا)، وصيغة

---

[٢٧] يراجع : الزمخشرى : الكشاف ، ١٣٢/٤ ، ١٣٣ ، وسليمان بن عمر الجمل : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، د . ت ، ٣٩٣/٤ .

[٢٨] ابن هشام : مغنى اللبيب ، ٥٠٠/٢ .

[٢٩] السكاكى : المفتاح ، ص ١١٢ ، والقزوينى : الإيضاح ، ١٥٠/١ .

الاسم الظاهر تفيض بالخضوع ، والتضرع ، والتذلل ، وضمائر الغياب فى (أتى ، مقرا ، دعا) ، وغياب الذات المبدعة تماما عن الصياغة بواسطة بنية الحذف فى البيت الثانى [تغفر (لى) ، تطرد (نى) ، يرحم (نى)] بما يتوافق مع ذلك السياق . ويسيطر الصراع الانفعالى الحاد على صياغة البيت الثانى ، من خلال وجود (إنْ) الشرطية ووضع اسم الإشارة (ذاك) موضع الضمير ، ف (إن) تدل على الشك ، وتوحى بضغوط شديدة من دوال الإثم (العاصى ، الذنوب) على الذات المبدعة ، بما يكاد يوقعها فى هوة اليأس والقنوط ، والشك فى إمكان العفو والمغفرة ، واسم الإشارة (ذاك) يعكس رغبة ملحة للذات المبدعة فى عفو الله ومغفرته ، وهى رغبة تخرج من منطقة الأمنيات المعنوية الداخلية ، إلى منطقة الرجاء اليقينى ، والأمل المحسوس الملموس الذى تقويه الدلالة الصياغية لاسم الإشارة (ذاك) .

وبذلك أسهم التشكيل اللغوى فى تجلية مشاعر الذات المبدعة ، وانفعالاتها المختلفة ، على الرغم من عدم حضورها المكثف فى الصياغة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى

المعانى السياقية للأساليب الإنشائية

١ ـ الخصائص التشكيلية والدلالية للأساليب الإنشائية

٢ ـ أنواع الإنشاء الطلبى :

أولا : التمنى

ثانيا : الاستفهام

ثالثا : الأمر

رابعا : النهى

خامسا : النداء

٣ ـ جماليات التبادل بين الخبر والإنشاء

أولا : استعمال الأسلوب الخبرى فى موضع الأسلوب الإنشائى

ثانيا : استعمال الأسلوب الإنشائى فى موضع الأسلوب الخبرى .

obeikandl.com

الخصائص التشكيلية والدلالية للأساليب الإنشائية

تتميز بنية الأسلوب الإنشائى بتحقيق أكبر قدر من التناغم والتوفيق بين الوظائف الأربع الرئيسية فى عملية الاتصال الأدبى : الوظيفة الشعرية ، والوظيفة الانفعالية ، والوظيفة الطلبية ، والوظيفة المرجعية .

تظهر الوظيفة الشعرية كهدف صياغى أولى تتجه إليه بنية الإنشاء ، حيث تغيب ثنائية (الصدق والكذب) عن الصياغة الإنشائية ، ليس لأنها غير موجودة ، ولكن لأنها غير مقصودة ، فليس الهدف فى بنية الإنشاء حدوث مطابقة – أو عدم مطابقة – بين النسبة الكلامية (الصياغة) ، والنسبة الخارجية (الواقع الخارجى) كما فى بنية الجملة الخبرية ، وإنما الهدف هو الإنشاء فقط ، أى الصياغة الإنشائية قال التفتازانى : " الكلام إما أن تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ ، ويكون اللفظ موجدا لها من غير قصد إلى كونه دالا على نسبة حاصلة فى الواقع بين الشيئين ، وهو الإنشاء .

أو تكون نسبته بحيث يقصد أن لها نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه ، وهو الخبر " [١]

ولخص " الدسوقى " هذا الكلام ، وحدده بقوله : " النسبة الكلامية والخارجية ، والمطابقة وعدمها ، أمور لابد منها فى الخبر والإنشاء ، والفارق بينهما إنما هو القصد وعدم القصد ، فالخبر لابد فيه من قصد المطابقة أو قصد عدمها ، والإنشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها " [٢]

وتظهر الوظائف الثلاث [الانفعالية (المتكلم) ، والطلبية (المتلقى الخاص أو العام) ، والمرجعية (السياق)] تباعا فى المستوى الصياغى الأصلى لبنية الإنشاء ، وفى المستويات الدلالية التوليدية الناتجة عن تفاعل الصياغة مع المقام ومقتضيات الأحوال .

الإشارات إلى الإمكانات التوليدية للأساليب الإنشائية شائعة مستفيضة فى تراثنا البلاغى ، وقد تكرر كثيرا حديث البلاغيين عن خروج البنى الإنشائية عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى كثيرة " وليس ضروريا أن يكون التوليد الذى لاحظوه هو بعينه الذى يقول به أصحاب النحو التوليدى ، لكنه قريب منه ، ويأخذ شكله المزدوج بين السطح والعمق " [٣]

ويلفت النظر تأكيد السكاكى كثيرا على الجانب التوليدى فى دلالات أساليب الإنشاء وبخاصة الإنشاء الطلبى ، وهو ما يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، فهو فى بداية حديثه عن " الطلب " يقول : " إنما نتكلم فى مقدمة يسند عليها المقام من بيان ما لابد للطلب ، ومن تنوعه ، والتنبيه على أبوابه فى الكلام ، وكيفية توليدها لما سوى أصلها " [٤]

---

[١] سعد الدين التفتازانى : مختصر المعانى ، ص ٢٦ .

[٢] محمد بن عرفة الدسوقى : حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص) ، ١٦٦/١ .

[٣] د / محمد عبد المطلب : البلاغة العربية ، ص ٣٠٢ .

[٤] السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٦٩ .

openkandil.com

وفى بيانه للخصائص العامة للبنى الإنشائية يقول : " متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام ... " [٥]

ويتحدث عن إنتاج الأساليب الإنشائية لدلالات جديدة تضاف إلى معانيها الأصلية أو تخرج عنها كلية ، كالنفى ، والإنكار ، والتوبيخ ، والتعجب ، والتعجيب ، والتقرير والاستبطاء ، والتعجيز ، والإهانة ، والتحقير ، وغير ذلك من الدلالات المختلفة .

وحديث السكاكى عن الإمكانات التوليدية للأساليب الإنشائية مبنى على أربعة محاور :

١ – استحضار الدلالة الأصلية للأسلوب الإنشائى .

٢ – تفاعل الصياغة مع السياق على المستوى السطحى .

٣ – استحضار البنية العميقة للصياغة .

٤ – ملاحظة الإضافات الدلالية الهامشية المتولدة من الوجود الاعتبارى أو الحقيقى لطرفى الاتصال (المتكلم والمتلقى) .

وهذه المحاور مستنبطة من كلام طويل للسكاكى ، منه – على سبيل المثال – قوله :

" إذا قلت لمن يهجو أباه ، مع حكمك بأن هجو الأب ليس شيئا غير هجو النفس :

هل تهجو إلا نفسك ؟ امتنع منك إجراء الاستفهام على ظاهره ، لاستدعائه أن يكون الهجو احتمل عندك توجها إلى غيره ، وتولد منه بمعونة القرينة الإنكار والتوبيخ " [٦]

وتأكيد البلاغيين على هذا الجانب التوليدى فى الأساليب الإنشائية بُنى عليه استبعادهم لأساليب الإنشاء غير الطلبى ، لقلة إمكاناتها التوليدية ، نتيجة لهيمنة الدلالة الأصلية على الصياغة فى مستوى البنية السطحية ، والبنية العميقة ، " فالإنشاء إن لم يكن طلبا كأفعال المقاربة ، وأفعال المدح والذم ، وصيغ العقود ، والقسم ، ورُبّ ، ونحو ذلك فلا يبحث عنها ها هنا لقلة المباحث البيانية الإنشائية المتعلقة بها ، ولأن أكثرها فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء " [٧] .

إن قدرة أساليب الإنشاء الطلبى على إنتاج دلالات متعددة تجاوز دلالتها الأصلية تسهم فى إضفاء الحيوية على الصياغة ، وكسر عناصر الثبات والاستقرار التى قد تسيطر على الصياغة الخبرية فى بعض مستوياتها الأسلوبية . وعنصر الحيوية فى الأساليب الإنشائية ينتج عن أربعة عوامل رئيسية ، لا تستغنى عنها – أو عن بعضها – الأساليب الخبرية ، ولكنها لا تقوم عليها أساسا كما تقوم الأساليب الإنشائية :

---

[٥] المرجع السابق : ص ١٧١ .

[٦] نفسه : ص ١٧١ ، ١٧٧ .

[٧] سعد الدين التفتازانى : مختصر المعانى ، ص ١٤٧ .

أولها : العامل الذاتى :

فمن مقومات التراكيب الإنشائية – وبخاصة الطلبية – النغمة الصوتية ، فهذه لا تنخفض فى آخرها ، لبقاء الكلام فى حاجة إلى جواب بالقول ، أو استجابة بالفعل ، أو تعليق ، أو ما من شأنه أن يجعل الكلام منفتحا غير منغلق .

ثانيها : العامل النحوى أو الصرفى :

فالتراكيب الإنشائية ترتكز عى أدوات خاصة (كالأداة فى الاستفهام أو القسم) ، أو صيغ معينة تبنى عليها بعض عناصرها (كصيغة الأمر فى الأمر ، أو صيغة ما أفعله ، أو أفعل به فى التعجب) وتساهم فيها هذه العناصر بأكبر قسط فى تحديد مدلولها .

ثالثها : العامل المعنوى البلاغى :

فمن مقومات هذه الأساليب – فى ظاهرها – الترجمة عن الانطباعات العاطفية دون المقررات العقلية ، فهى تعكس أزمة الشعور ، وحيرة العقل ، أكثر من حقيقة العلم وصادق الرأى .

رابعها : العامل النفسى المنطقى :

فهذه الأساليب تنبئ بقيام حوار ، وقد تفضى إليه ، وقد لا تفضى ، وبحسب ذلك تتلون معانيها ودلالتها .

بهذه العوامل تنشط الأساليب الإنشائية مراحل النص إذا داخلته ، وتعرب أكثر من غيرها من الأساليب عن حاجة الباثّ إلى مساهمة المتقبل الذى يتحول فيها من متقبل مجرد إلى طرف مشارك . والملاحظ أن الحاجة إلى مساهمة المتقبل هى أكثر إلحاحا فيما سماه العرب – موفقين – بالإنشاء الطلبى " [٨] .

ونظرا لقدرة الأساليب الإنشائية على نسج خيوط اتصال متينة بين المبدع والمتلقى فقد صنفتها الدراسات البلاغية الحديثة ضمن ما يعرف بـ " أشكال الاستعانة " ، وهى تشمل الأشكال التى كانت الخطابة الكلاسيكية تفهمها على أنها أشكال مواجهة الجمهور ، وإثارة انفعالاته عن طريق تحميل الأساليب الإنشائية (والخبرية أيضا) بمعان أخرى غير معانيها الأصلية ، وبذلك يتم ربط المتلقى بالموضوع ، وتشكيل انفعالاته بما يتوافق مع ما يريده الخطيب [٩] .

---

[٨] د / محمد الهادى الطرابلسى : خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

[٩] خوسيه ماريا إيفانكوس : نظرية اللغة الأدبية ، ص ١٩٣ ، بتصرف .

obeikandl.com

أنواع الإنشاء الطلبى

أولا : التمنى :

هو طلب حصول شئ محبوب لا يطمع فيه ، لأنه إما أن يكون محالا غير ممكن ، أو يكون ممكنا ولكنه بعيد الحصول [١٠] .

والتمنى هو الأسلوب الإنشائى الذى تهيمن عليه الوظيفة الانفعالية فى صياغاته المختلفة ، لأن " التعبير عن عاطفة المتكلم يحتل مركز الثقل ، وإن اقترن بطلب يدرك مقدمه نفسه صعوبته أو استحالة تنفيذه " [١١]

يحتوى الإنتاج الصياغى لبنية " التمنى " على بعدين متلازمين :

البعد الداخلى : وهو يحتوى على الرغبة المحبوبة الدفينة ، أو ما يسميه البلاغيون : " الأحوال القلبية .

البعد الخارجى : وهو الواقع الخارجى الفعلى الذى يحتوى على الشئ المحبوب الذى لا يطمع فيه لأنه مستحيل ، أو بعيد الحصول [١٢] .

والأداة الرئيسية فى أسلوب التمنى هى " ليت " ، التى تتحول فى البنية العميقة للصياغة إلى " أتمنى " . ويرى الباحث أن " ليت " تقيم نوعا من التعادل الدلالى فى الإنتاج الصياغى للتمنى ، حيث تجعل الصراع متكافئا بين البعد الداخلى والبعد الخارجى ، فالرغبة الداخلية فى الحصول على الشئ المحبوب شديدة ، ولكن الواقع الخارجى يجعله مستحيلا أو عسير المنال ، وحتى إذا كان الشئ المحبوب ممكن الوقوع ، فإن إحساس النفس به – مع " ليت " – يجعله فى حكم المستحيل .

كما فى قول الشاعر : [من البسيط]

لَيْتَ الكواكِبَ تدْنُو لـىْ فأنْظِمَهـا عُقـودَ مَـدْحٍ فَما أرْضَى لَكُم كَلِمى

البنية العميقة :

ليست الكواكب دانية فأنظمها ⟵ واقع خارجى

أتمنى أن تكون الكواكب دانية فأنظمها ⟵ رغبة قلبية محبوبة

البنية السطحية :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ⟵ تعادل دلالى بين الواقع والرغبة

ليس الشئ المحبوب حاصلا وقت التمنى بحسب مقتضيات بنية الإنشاء ، لذا تظهر أداة النفى (ليس) كخطوة أولى فى البنية العميقة لتؤكد انتفاء حصوله ، ثم تتعاظم الرغبة الداخلية فى حصول الشئ المحبوب ، لتصبح أمنية مؤرقة يعكسها ظهور الفعل (أتمنى) فى المرحلة الثانية فى البنية العميقة

---

[١٠] يراجع : السيوطى : شرح عقود الجمان ، ص ٤٨ ، عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ، ٣٢/٢ .

[١١] د / صلاح فضل : علم الأسلوب ، وصلته بعلم اللغة ، القاهرة ، مجلة فصول ، م٥ ، ع١ ، سنة ١٩٨٤ ، ص٥٥

[١٢] د / محمد عبد المطلب : البلاغة العربية ، ص ٢٨٠ ، بتصرف .

، ويتحول فعل التمنى إلى (ليت) فى البنية السطحية حيث تؤسس تعادلا دلاليا بين الرغبة الداخلية والواقع الخارجى المستحيل .

وقول مالك بن الريب حين أحس بدنو أجله ، فى يائيته المشهورة : [من الطويل]

ألاَ ليْـتَ شـعْرى هـل أبِيْتَنَّ لَيْلَـةً بَجَنْبِ الغَضَـا أُزْجِى القِلاصَ النَّوَاجِيـا

البنية العميقة :

ليس الغضا قريبا فأبيت به ليلة واقع خارجى

أتمنى أن أبيت ليلة بجنب الغضا ← رغبة قلبية محبوبة

البنية السطحية : ←

ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... تعادل دلالى بين الواقع والرغبة

ليس المطلوب مستحيلا ولا بعيد الحصول فى الواقع الخارجى ، ولكن الذات المبدعة هى التى تحس باستحالته ، ولذا ظهرت (ليت) فى البنية السطحية لتعكس اليأس من المبيت ليلة بجنب الغضا (موطن الذكريات الجميلة) ، وذلك إذا نظرنا إلى السياق المهيمن على القصيدة وهو دنو الأجل ، والإحساس بالفناء العاجل :

فَيَا صَاحِبَىْ رَحْلِى دَنا الموتُ فاحْضُرا بِرابِيَـــةٍ إنِّـــى مُقيـــمٌ لَيَالِيـــا

وخُـطّا بأطْـرافِ الأسِـنَّةِ مَضْـجَعِى وَرُدَّا عـلـى عَيْنَـىَّ فَضْـلَ ردائيـا

وحين تعمد الصياغة إلى تغليب أحد البعدين على الآخر ، فإنها تنحى أداة التمنى الأصلية (ليت) ، لتفسح المجال لأدوات أخرى لا تفيد التمنى فى الأصل ، ولكنها تحمّل بدلالة التمنى إلى جانب دلالتها الأصلية التى تؤثر على التوجه الدلالى للصياغة .

فحينما يكون الهدف تغليب البعد الداخلى على البعد الخارجى . تظهر أدوات مثل (هل ، ولعل) فى البنية السطحية لتكثيف الرغبة القلبية الداخلية ، وتعظم حضورها الدلالى ، فتتغلب على الواقع الخارجى وتحوله من واقع مستحيل إلى واقع ممكن ، وذلك لاشتداد الرغبة فى الحصول على الشئ المحبوب . هذا التوجه الدلالى الجديد للصياغة يرجع إلى تأثير الدلالة الأصلية لأدوات التمنى الجديدة (هل ، ولعل) فى دلالة التمنى المضافة إليها ، " والسر فى العدول عن (ليت) التى هى الأصل فى التمنى إلى (هل) ، إبراز المتمنى فى صورة المستفهم عنه الذى لا جزم بانتفائه ، لإظهار كمال العناية به حتى لا يستطاع الإتيان به إلا فى صورة الممكن الذى يطمع فى وقوعه " [١٣]

كما جاء فى القرآن الكريم حكاية عن أمانى الكافرين يوم القيامة : **{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ }** [الأعراف :٥٣]

---

[١٣] ابن يعقوب المغربى : مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) ، ٢/٢٤٠ .

البنية العميقة :

ليس لنا شفعاء فيشفعون لنا ←———— واقع خارجى

نتمنى أن يكون لنا شفعاء فيشفعوا لنا ←———— رغبة قلبية داخلية

البنية السطحية :

هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا تغلّب الرغبة الداخلية على الواقع الخارجى

الدلالة الأصلية لـ (هل) هى الاستفهام ، وهو يكون فى الأمور الممكنة ، وإشرابها بدلالة التمنى " يفرغ على التمنى لونا آخر ، يجعله فى صورة الممكن ، وإن كانوا يعتقدون يقينا أنه لا سبيل إليه ، وإنما هكذا أوهمت عبارتهم ، وفى هذا الإيهام إشارة إلى أن حاجتهم إلى شفيع قد غلبت على نفوسهم ، وعظم تعلقها بها حتى صارت من فرطه تفترض غير الواقع واقعا لتستروح بهذا الأمل الموهوم " [١٤]

وتفيد (لعل) الرجاء ، وهو يكون فى الأمور المتوقعة ، أو التى يمكن حصولها ، وعندما تستخدم (لعل) فى التمنى ، فإنها تزوده بمعان جديدة تكثف الرغبة الداخلية وتوحى بإمكان التغلب على الواقع الخارجى المستحيل ، وتحويله إلى شئ يمكن الحصول عليه . كما جاء فى القرآن الكريم حكاية عن فرعون : { **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ** [٣٦] **أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا** } [غافر : ٣٦ ، ٣٧]

البنية العميقة :

ليس لى صرح فأطلعُ إلى إله موسى ←———— واقع خارجى

أتمنى أن يكون لى صرح ، فأطلعَ إلى إله موسى ←———— رغبة قلبية داخلية

البنية السطحية :

ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ... فأطلعَ ←———— تغلب الرغبة على الواقع

فى رواية حفص عن عاصم ينتصب الفعل (فأطلعَ) بعد (لعل) ، وبذلك تحمل (لعل) معنى (ليت) ، وبذلك يكون للتمنى حضور فى المستوى العميق للصياغة ، وحضور فى المستوى السطحى يتمثل فى نصب الفعل (فأطلع) بأن مضمرة بعد (الفاء) .

ومجئ التمنى بلفظ الرجاء (لعل) فى المستوى السطحى للصياغة يوحى بشدة الرغبة القلبية الداخلية ، والاجتهاد فى تحويلها إلى واقع موهوم يزيح الواقع الفعلى المستحيل " وفى ذلك إيهام بأن فرعون جاد فى التعرف على حقيقة ما يدعو إليه موسى ، فها هو يبلغ أسباب السموات ، ويجد فى أن يطلع على حقيقة الأمر ، وكأن وراء ذلك إدلالا بقوة موقفه ، وأنه إنما يفعل ذلك ليبطل ما قد يطوف فى الأوهام أن فى الكون إلها غيره " [١٥] .

---

[١٤] د / محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط٢ سنة ١٩٨٧ ، ص ٢٠١ .

[١٥] المرجع السابق : ص ٢٠٢ .

وحينما تهدف الصياغة إلى تكثيف استحالة الحصول على الشئ المحبوب ، نتيجة لسطوة الواقع الخارجى ، تبرز (لو) فى البنية السطحية لتؤدى دلالة التمنى بالإضافة إلى دلالتها الأصلية ، وهى " الامتناع " ، وبذلك تمتد الاستحالة إلى الرغبة القلبية الداخلية لتكثف إحساس اليأس المطبق ، والقنوط الدائم .

كما فى قول الله تعالى : { **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَسْبَابُ** [١٦٦] **وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا** } [البقرة :١٦٦،١٦٧]

وقوله تعالى : { **أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ** } [الزمر :٥٨]

البنية العميقة :

ليست لنا كرة إلى الدنيا فنتبرأ من المضلين (أو نكون من المحسنين) ←——واقع خارجى

نتمنى أن تكون لنا كرة فنتبرأ من المضلين (أو نكون من المحسنين) ←——رغبة قلبية داخلية

البنية السطحية :

لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم (أو أكون من المحسنين) ←——تغلب الواقع المستحيل على الرغبة .

استحالة الحصول على الشئ المطلوب (العودة إلى الدنيا) مضاعفة مع وجود (لو) ، حيث إن رؤية العذاب واقع فعلى يجعل هذا الطلب مستحيلا ، ودلالة (لو) تنقل الاستحالة إلى الرغبة الداخلية لتبدد أى أمل فى النجاة ، وبذلك يكون اليأس له بعدان مستحيلان :

بعد خارجى : يجعل العودة إلى الدنيا مستحيلة .

بعد داخلى : يبدد الأمل ، ويزرع القنوط فى النفوس ليبدد كل الأمنيات القلبية .

وقول " مهلهل بن ربيعة " حين أدرك ثأر أخيه " كليب " : [من الوافر]

فَلَوْ نُبِشَ المَقابِرُ عَنْ كُلَيْبٍ ... فَيُخْبِرَ بالذَّنَائِبِ أيُّ زِيرِ

بِيَوْمِ الشَّعْثَمَيْنِ لَقَرَّ عَيْنًا ... وكيفَ لِقاءُ مَنْ تَحتَ القبورِ ؟ [١٦]

البنية العميقة :

ليس كليب حيا ، فيخبر عن شجاعتى ←—————— واقع خارجى

أتمنى أن يكون كليب حيا ، فيخبر عن شجاعتى ←—————— رغبة قلبية داخلية

البنية السطحية :

فلو نبش المقابر عن كليب ، فيخبر ←—————— تغلب الواقع الخارجى على الرغبة .

بدء البيتين بـ (لو) ، وختامهما بالاستفهام الدال على النفى والإنكار ، جعل الصياغة تدور فى دائرة اليأس والعدم ، بما يقضى على أية أمنية أو رغبة فى لقاء الأحبة .

---

[١٦] الأصمعى : الأصمعيات ، تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٤ سنة ١٩٧٦ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
الذنائب : موضع به قبر كليب ، الزير : الذى يخالط النساء ويتحدث إليهن ، وكان كليب يعيره بانصرافه إلى اللذات واللهو ، الشعثمان : سيدا " ذهل " وفارساها ، قتلهما المهلهل أخذا بثأر كليب .

obeikandl.com

ويعمق الواقع الخارجى استحالة تحقق المطلوب (إحياء كليب بعد موته) ، وتكثف دلالة الامتناع فى (لو) عوامل اليأس فى الذات المبدعة ، وتقضى على الأمنيات التى تراودها أحيانا فى إثبات الشجاعة أمام الأخ المقتول . ويأتى الاستفهام الإنكارى الذى يحمل دلالة العدمية والفناء ليقضى على أى أمل فى احتمال لقاء الأحبة ، وكيف لقاء من تحت القبور ؟

ثانيا : الاستفهام :

المدلول اللغوى " للاستفهام " يتوافق مع المدلول الاصطلاحى ، فالألف والسين والتاء حروف تدل على الطلب ، والمطلوب هنا هو " الفهم " . والمدلول الاصطلاحى للاستفهام " هو طلب حصول صورة الشئ فى الذهن بأدوات مخصوصة " [١٧] .

يحتوى التعريف البلاغى على بعدين :

١ – البعد الخارجى (صورة الشئ) : يحتوى على طرفين هما : المتلقى (الخاص أو العام) ، والسياق أى أنه يبرز وظيفتين هما : الوظيفة الطلبية ، والوظيفة المرجعية .

٢ – البعد الداخلى (الذهن) : وهو يشير إلى المتكلم ، أى الوظيفة الانفعالية ، وهى ليست وظيفة ثابتة ، فكثيرا ما تتحول إلى الوظيفة الطلبية ، ليصبح المتلقى له الحضور المهيمن على الصياغة وتدعم الوظيفة الشعرية تلك الوظائف السابقة ، لأن التركيز على الرسالة (الصياغة) – كما قلنا – هدف أولى فى الإنتاج الدلالى لبنية الإنشاء عموما .

تمتد الحركة الدلالية فى بنية الاستفهام من الخارج (صورة الشئ) إلى الداخل (الذهن) ، أى من المستوى السطحى إلى المستوى العميق .

البعد الخارجى ← البعد الداخلى

صورة الشئ ← تحصل فى ← الذهن

البنية السطحية ← تتحول إلى ← البنية العميقة [١٨]

يتراوح المطلوب فى بنية الاستفهام بين الدلالة الكلية ، والدلالة الجزئية ، فإذا كان المطلوب إدراك وقوع نسبة أو علاقة بين أمرين – أو عدم وقوعها – فإن حصوله يسمى بـ " التصديق " ، وعلاقة التصديق تشمل الدلالة الكلية للجملة .

وإذا كان المطلوب تحصيل صورة جزء من أجزاء الجملة (المسند إليه ، أو المسند ، أو أحد المتعلقات) ، فإن حصوله يسمى بـ " التصور " ، وهو مختص بدلالة جزئية فى الجملة .

وتختص " الهمزة " بالسؤال عن الدلالة الكلية والدلالة الجزئية فى الجملة ، فيُسأل بها عن حصول

---

[١٧] يراجع : بدر الدين بن مالك : المصباح ، تحقيق د / حسنى عبد الجليل يوسف ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، ط١ سنة ١٩٨٩ ، ص ٨٣ ، والتفتازانى : مختصر المعانى ، ص ١٤٩ ، عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ، ٣٤/٢

[١٨] د / محمد عبد المطلب : البلاغة العربية ، ص ٢٨٥ ، بتصرف .

النسبة (التصديق) ، ويسأل بها عن أى جزء من أجزاء الجملة (التصور) ، لأن " الهمزة " هى أم الباب ، وما عداها من أدوات الاستفهام نائب عنها [١٩] .

وتختص (هل) بالسؤال عن وقوع النسبة بين طرفى الإسناد أو عدم وقوعها ، أى طلب التصديق [*]

وتختص كل أداة من أدوات الاستفهام الباقية بالسؤال عن جزء من أجزاء الجملة ، أى حصول "التصور" ، فيستفهم بـ :

(ما) عن الجنس مطلقا ، أو الوصف

(من) عن الجنس من ذوى العلم (العاقل)

(أى) عن الوصف المميز لأحد المشاركين فى أمر يعمهما .

(كم) عن العدد

(كيف) عن الحال

(أين) عن المكان

(متى) عن الزمان

(أنَّى) عن الحال ، والمكان ، والزمان .

(أيَّان) عن الزمان المستقبل [٢٠] .

بنية الاستفهام – كسائر البنى الإنشائية – بنية توليدية فى المقام الأول ، تتجاوز فيها الصياغة دلالتها الأصلية لتنتج دلالات جديدة بمعونة قرائن الأحوال .

وعملية التوليد الدلالى تمر بثلاث مراحل متتابعة :

١ – التنبيه : وهو موجه إلى المتلقى بالدرجة الأولى .

٢ – التفاعل : أى تفاعل الوظيفة الطلبية (المتلقى) مع الوظيفة المرجعية (السياق) ، والوظيفة الشعرية (الصياغة)

٣ – الإنتاج : يمثل المرحلة الأخيرة التى تنبعث فيها الدلالات التوليدية الجديدة للبنية وتتركز بؤرتها فى ذهن المتلقى ، أى تحصل صورتها فى الذهن كما قال البلاغيون .

هذه المراحل التوليدية الثلاث استنتجها الباحث من إشارة مجملة لعبد القاهر الجرجانى قال فيها : " واعلم أنّا و إن كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا بالإنكار (أى كما فى قول امرئ القيس : أيَقْتُلُنى

---

[١٩] بدر الدين بن مالك : المصباح ، ص ٨٤ .

[*] للبلاغيين كلام كثير عن شروط تركيب بنية الاستفهام بعد " الهمزة وهل " ، ليس هنا مجال تفصيلها ، ومن شاء فليراجع : عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، ص١١٨– ١٢٣، والسكاكى مفتاح العلوم: ١٧٣ ، ١٧٦،١٧٧ .

[٢٠] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٧٣ – ١٧٥ ، وبدر الدين بن مالك : المصباح ، ص ٨٣ – ٨٥ ، والقزوينى : الإيضاح ، ٣٤/٢ – ٤٣ .

obeikandl.com

والمَشْرَفيُّ مُضاجِعي) ، فإن الذى هو محض المعنى :

أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع " [٢١]

فالتنبيه عند عبد القاهر يهدف إلى الربط المحكم بين المتلقى والصياغة والسياق ، لأنه يعنى "الإيقاظ ، وإثارة حركة الفكر والحس ، ليلتفت (المتلقى) بهذا الحضور الواعى إلى السياق فيستوعبه بخفاياه ، ودقائق همسه ، وكل حواشيه فيلتقط المراد ... وهذا التنبيه عند الشيخ (عبد القاهر) يكفى لتلقى كل ما يثار حول الفكرة من حقائق وبراهين تؤدى إلى رفضها ، أو قبولها ، أو الإقرار بها ، أو الخجل منها ، أو استنكارها أو استبعادها ، إلى آخر ما يعطيه الموقف . المهم أن يلتفت السامع إلى هذه الحقائق ثم ندعه يتعامل معها بوعيه ، ويتدبرها بفكره ، وينتهى فيها إلى ما يراه " [٢٢]

والمراحل التوليدية الثلاث يمكن أن تنطبق على الإنتاج الدلالى فى بقية الأساليب الإنشائية [الأمر ، والنهى ، والنداء] ، مع ملاحظة أن الإنتاج الدلالى الإضافى قد يرتد فى بعض السياقات إلى الوظيفة الانفعالية التى تعبر عن انفعالات الذات المبدعة .

وقد اختلف البلاغيون : هل تبقى الدلالة الأصلية للاستفهام إلى جانب الدلالات الإضافية التى تنتجها الصياغة ، أم يزول أثرها تماما من الصياغة ؟

فنقل السيوطى عن شمس الدين بن الصائغ قوله : " قد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعان ، أو أشربته تلك المعانى ... " [٢٣]

هنا تبدو الحيرة وعدم القطع ببقاء دلالة الاستفهام ، أو زوالها ، وأكثر البلاغيين يميلون إلى بقاء الدلالة الأصلية للاستفهام إلى جانب الدلالات الإضافية المتولدة عن الصياغة . فقد قال الزمخشرى فى الآية الكريمة **{ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ }** [الحجر : ٥٤]

" هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب " [٢٤]

وقال السيوطى بعد مناقشة طويلة لهذا الأمر : " ويظهر بالتأمل بقاء معنى الاستفهام مع كل أمر من الأمور المذكورة " [٢٥]

وهذا الرأى أقرب إلى الصواب ، لأن الدلالة الأصلية للاستفهام هى التى تنبه المتلقى ، وتبدأ منها عملية توليد الدلالات الإضافية ، وتتكثف فاعليتها فى ذهن المتلقى ببقاء دلالة الاستفهام الأصلية ماثلة فى الصياغة .

وخاض البلاغيون المتأخرون فى مسألة تخريج " المعانى السياقية " الإضافية لبنية الاستفهام ،

---

[٢١] عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، ص ١١٩ .

[٢٢] د / محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٢٤٤ .

[٢٣] السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٢٣٥/٢ .

[٢٤] الزمخشرى : الكشاف ، ٣١٥/٢ .

[٢٥] السيوطى : الإتقان ، ٢٤١/٢ ، ويراجع : بهاء الدين السبكى ، عروس الأفراح ، ٣٠٦/٢ .

obeikandl.com

وقالوا كلاما كثيرا متكلفا فى مجازية المعانى الإضافية ، وفى تعيين نوع المجاز الذى تندرج تحته ، والعلاقات التى تربط بين المعنى الأصلى والمجازى (الإضافى) [٢٦]

" وقد ذكر العلامة عبد الحكيم السيالكوتى وجوها من الاحتمالات قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغرابا منها ، فقال : " إنه قد يراد منها تلك المعانى بطريق الكناية ، وقد تراد بطريق أنها من مستتبعات التراكيب ، كما تراد بطريق المجاز " . وهذا التردد دليل على غموض وجه هذا الدلالة ، وعلى عدم اقتناعه بواحدة منها ، وإن كان أولاها اعتبار أنها من مستتبعات التراكيب " [٢٧]

يرى الباحث أن الدلالة المجازية مستبعدة فى هذه المعانى السياقية ، لأن بنية الاستفهام قد تفيد أكثر من معنى فى نص واحد ، كما فى قوله تعالى : { **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } [البقرة : ٢٨] الاستفهام هنا يفيد الإنكار ، والتوبيخ والتعجب [٢٨] "فإذا ادعينا أن أداة الاستفهام مجاز فى إحدى هذه المعانى فما موقفنا من غيرها ؟ وهل يمكن أن نقول : إنها نقلت من معناه الأصلى إلى هذه المعانى مجتمعة ؟ الواقع أن اللفظ فى المجاز ينقل من معناه إلى معنى آخر ، لا إلى جملة معان " [٢٩] .

كما أن الدلالة المجازية والكنائية مرتبطتان بالألفاظ ، وتلك المعانى السياقية فى بنية الاستفهام ليست مرتبطة بالألفاظ إلا فى مرحلة التنبيه فقط – كما قال عبد القاهر – أما إنتاج المعانى السياقية الإضافية نفسها فيخضع لتفاعل المتلقى مع الصياغة والسياق المحيط بها .

الدلالات الإضافية فى بنية الاستفهام تشبه – فى رأى الباحث – الدلالة التعريضية [*] فى عدم اعتمادها على المستوى السطحى للصياغة ، وإنما تعتمد فى إنتاجها ، وتكثيف فاعليتها على السياق ، والحركة الذهنية عند المتلقى .

والدلالات السياقية الإضافية التى توحى بها أدوات الاستفهام كثيرة لا يمكن حصرها أو الإحاطة بها ، لأنها مرتبطة بالانفعالات غير المتناهية للذات المبدعة ، وبالحركة الذهنية عند المتلقى وهى غير محددة أو محصورة فى نطاق ضيق ، وبإيحاءات السياق المحيط بالصياغة ، وهى كثيرة لا تحصى ، نظرا لتعدد السياقات والأحوال والمواقف . وقد ذكر البلاغيون عددا من هذه الدلالات الإضافية ، ونبهوا إلى كثرتها ، وارتباطها بالمقام وقرائن الأحوال [٣٠] .

وتتحرك معظم الدلالات السياقية فى مجال الوظيفة الطلبية (أو الإفهامية) ، أى أن بؤرتها الدلالية تتجه إلى المتلقى الخاص أو العام ، وتتحرك بعض هذه الدلالات فى مجال الوظيفة الانفعالية ،

---

[٢٦] يراجع : شروح التلخيص (كلها) : ٢/٢٩٠ ومابعدها .

[٢٧] د / محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط٢ سنة ١٩٨٨ ، ٣٦٥ .

[٢٨] يراجع : الزمخشرى : الكشاف ، ٥٩/١ ، وسليمان بن عمر الجمل : الفتوحات الإلهية ، ٣٤/١ .

[٢٩] د / محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية ، ٢٦٤ .

[*] سيأتى الحديث عن التعريض والدلالة التعريضية فى الفصل الثانى من الباب الثانى .

[٣٠] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، وبدر الدين بن مالك : المصباح ، ٨٥ – ٨٨ ، والقزوينى الإيضاح ، ٤٣ – ٥١ .

أى أنها ترتد إلى الذات المبدعة لتعبر عن مشاعرها وانفعالاتها ، وهناك سياقات ترتد بؤرتها الدلالية إلى الصياغة ذاتها أى أنها تتحرك فى نطاق الوظيفة الشعرية ، ولا تكون دلالتها كلها موجهة إلى طرفى الاتصال .

فمما يتحرك فى نطاق الوظيفة الانفعالية : دلالة " التمنى " ، وقد سبق الحديث عنها فى مبحث "بنية التمنى " ، فى الكلام عن إفادة " هل " معنى التمنى .

ودلالة " التعجب " ، كما فى قول أبى تمام يمدح أبا المغيث الرافقى : [*] [من الكامل]

ما لِلْخُطوبِ طَغَتْ علىَّ كأنَّها جَهِلَتْ بأنَّ نَداكَ بالمرصادِ ؟! [٣١]

وقول المتنبى فى رثاء أبى شجاع فاتك ، والتَعريض بكافور : [من الكامل]

قَبْحًا لِوَجْهِكَ يا زَمَانُ فإنَّهُ وَجْهٌ لَهُ مِنْ كُلِّ لُؤْمٍ بُرْقُعُ

أيَمُوتُ مِثْلُ أبى شُجَاعٍ فاتِكٍ ويَعيشُ حاسِدُهُ الخَصِىُّ الأوْكَعُ ؟! [٣٢]

ودلالة " الحيرة والاضطراب " ، كقول أحمد شوقى فى رثاء إسماعيل صبرى : [من الكامل]

ما أنتِ يا دُنيا ؟ أرُؤْيا نائمٍ أمْ لَيْلُ عُرْسٍ ، أمْ بِساطُ سُلافِ ؟ [٣٣]

وكما فى مقطوعة مجنون ليلى قيس بن الملوح التى تفيض حيرة واضطرابا ولوعة:[من الطويل]

فَوَاللّهِ ثُمَّ اللّهِ إنِّى لَدَائِبٌ أُفَكِّرُ ما ذنبى إلَيْها وأعْجَبُ ؟

وَواللّهِ ما أدْرِى عَلامَ قتَلْتِنِى ؟ وأىَّ أُمُورِى فِيكِ يا لَيْلَ أركبُ ؟

أَأَ قْطَعُ حَبْلَ الوَصْلِ ؟ فالمَوْتُ دُونَهُ أمَ اْشْرَبُ رَنْقًا مِنْكُمُ لَيْسَ يُشْرَبُ ؟

أَمَ اْهْرَبُ حَتَّى لا أَرَى لِى مُجَاوِرًا ؟ أمَ اْصْنَعُ ماذا ؟ أمْ أَبوحْ فَأُغْلَبُ ؟

فأيّهُما يالَيْلَ مَا ترتَضِيْنَهُ ؟ فإنِّى لَمَظْلُومٌ ، وإنِّى لَمُعْتِبُ [٣٤]

ودلالة " الاستبطاء " ، وفيه يكون المطلوب متوقعا ، ولكن المتكلم يستعجل حدوثه ، لحرصه عليه وشغفه به ، كما جاء فى القرآن الكريم : **{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ }** [البقرة : ٢١٤]

وقول المتنبى يذكر مسيره من مصر : [من البسيط]

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فى الظُّلَمِ ؟ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ ولا قَدَمِ [٣٥]

ودلالة " الاستبعاد " ، وفيه يكون المطلوب بعيدا غيرَ متوقع ، ولكن المبدع يسجل انفعالاته ، وهى مزيج من التمنى واليأس والحسرة . ، كقول المتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمدانى :

(*) سيكتفى الباحث بإيراد الشواهد ، وبيان سياقها تجنبا للإسهاب والتطويل .

(٣١) ديوانه (بشرح التبريزى) ، تحقيق د / محمد عبده عزام ، ١٣٠/٢ .

(٣٢) ديوانه (بشرح العكبرى) ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ٢٧٥/٢ .

(٣٣) الشوقيات ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، سنة ١٩٧٠ ، ١٠٤/٣ .

(٣٤) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ، القاهرة ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ٢٠/٢ .

(٣٥) ديوانه : ١٧١/٤ .

[من الطويل]

وَمَا قَتَــلَ الأحْــرارَ كالعَفْــو عَنْهُــمُ ... وَمَنْ لَــكَ بالحُرِّ الـذى يَحْفَـظُ اليَـدَا ؟

إذا أنْــتَ أكْرَمْــتَ الكَرِيــمَ مَلَكْتَــهُ ... وإنْ أنْــتَ أكْرَمْــتَ اللئيـم تَمــرَّدَا (٣٦)

وقول أبى تمام : [من الطويل]

مَتَى أتَبَغَّى النِّصْفَ مِنْ قَلْــبِ صاحِبٍ ... إذا لمْ يَكُنْ قَلْبى شَـفِيقًا عَـلَى قلْبِـى ؟ (٣٧)

ودلالة " التعظيم " تتحرك فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، وترتد إلى الذات المبدعة حين يكون حضورها مهيمنا على الصياغة ، كقول العَرْجى عبد الله بن عمرو بن عمرو بن عثمان بن عفان من قصيدة قالها فى محبسه : [من الوافر]

أَضَــاعُونِى وأىَّ فتًــى أَضَــاعُــوا ؟ ... لِيَــوْمِ كَرِيهَــةٍ ، وسِــدَادِ ثَغْــرِ (٣٨)

وقول طرفة بن العبد فى معلقته : [من الطويل]

إذَا القَوْمُ قَالُوا : مَنْ فتًى ؟ خِلْتُ أنَّنِـى ... دُعِيْتُ ، فَلَـمْ أكسَــلْ ولَــم أتَبَلَّــدِ

وقد تتحرك دلالة التعظيم فى نطاق الوظيفة الإفهامية ، حين تتجه الدلالة إلى متلق خاص يكون حضوره مهيمنا على الصياغة ، كقول ابن هانئ فى مدح ابن الأندلسية جعفر بن على : [من الكامل]

مَــنْ مِنْكُــمُ المَلِــكُ المُطَــاعُ كأنَّــهُ ... تحْــتَ السَّــوابِغِ تُبَّــعٌ فِــى حِمْيَرِ ؟ (٣٩)

وقول المتنبى متغزلا ، والغزل فيه من الإعجاب والتعظيم جانب كبير : [من البسيط]

مَــنِ الجــآذِرُ فِــى زِىِّ الأعَارِيــبِ ... حُمْــرُ الحُــلَى والمَطايَا والجَلابِيبِ ؟

إنْ كُنْتَ تَسْــأَلُ شَـكًّا فِـى مَعارِفِهــا ... فَمَــنْ بَــلاكَ بتسْــهِيدٍ وتَعْذِيــبِ ؟ (٤٠)

وكذلك دلالة " التسوية " ، قد تتحرك فى مجال الوظيفة الانفعالية حين يكون للذات المبدعة حضور مهيمن على الصياغة ، كما فى قول المتنبى : [من الطويل]

وَلَسْتُ أُبَالِــى بَعْــدَ إدْراكِــىَ العُــلاَ ... أكَــانَ تُرَاثًــا مــا تناوَلْــتُ أمْ كسْــبا (٤١)

وقد تتحرك فى مجال الوظيفة الإفهامية حين يكون للمتلقى الخاص أو العام الحضور المهيمن على الصياغة ، كما فى قول الله تعالى : { **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** } [البقرة : ٦]

وهناك دلالات سياقية لا تتحرك إلا فى نطاق الوظيفة الإفهامية ، لأن المتلقى له الحضور المهيمن فى تشكيل الصياغة ، وبؤرة الدلالة موجهة إليه فى الأساس " كالتقرير " ، ومعناه : حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أونفيه ، ويجب أن يلى أداةَ الاستفهام الشئُ

---

(٣٦) المرجع السابق : ٢٨٨/١ .

(٣٧) ديوانه : ١٧١/٤ .

(٣٨) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ، ٤٢٨/١ (طبعة الهيئة العامة) . وهذا البيت منسوب خطأ إلى أبى فراس فى معظم كتب البلاغة .

(٣٩) ديوان ابن هانئ الأندلسى ، بيروت ، دار صادر ، د . ت ، ص ١٦١ .

(٤٠) ديوانه : ١٥٩/١ ، ١٦٠ .

(٤١) المرجع السابق : ٦٠/١ .

الذى تقرره به ، كما فى قول الله تعالى : { **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** (١) **وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ** } [الشرح:١،٢]

وقول أحمد شوقى فى قصيدة " توت عنخ آمون " : [من الوافر]

تَعالَى اللّــهُ كــانَ السِّــحْرُ فِيهِــمْ أليْسُــــوا لِلْحِجــارَةِ مُنْطِقِينــا ؟ (٤٢)

" والإنكار " ، تتوجه بؤرته الدلالية إلى متلق كاذب ، وهنا تهدف الصياغة إلى إبطال واقع وهمى كاذب ، وتسفيه الأوهام الكاذبة لمدَّعيه ، وقد يتجه التكذيب والإبطال إلى شئ حدث فى الماضى ، فيكون الناتج الدلالى فى البنية العميقة : (لـم يكن ، أو لم يحدث) كما فى قول الله تعالى : { **أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلا عَظِيمًا** } [الإسراء :٤٠]

وقد يتجه التكذيب والإبطال إلى شئ كائن الآن ، أو سيحدث فى المستقبل ، فيكون الناتج الدلالى فى البنية العميقة : (لايكون) ، كما فى قول الله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام { **قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** } [هود:٢٨] أى لايكون هذا الإلزام الآن أو فى المستقبل .

وعندما تتجه البؤرة الدلالية للإنكار إلى متلق مخطئ ، فإنه يكون إنكارا توبيخيا ، وفيه تحمل الدلالة قدرا كبيرا من التوبيخ والتقريع واللوم ، لأنها تنصب على واقع فعلى جدير بأن ينفى وينكر ، لأنه بعيد عن الصواب والمنطق ، كما جاء فى القرآن الكريم من خطاب إبراهيم عليه السلام لقومه { **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** } [الصافات:٩٥]

ودلالة " التهويل " تتجه إلى المتلقى أساسا ، لأنها تهدف إلى ترهيبه وتخويفه من أمر عظيم مروع ، كما فى قول الله تعالى :{ **الْقَارِعَةُ** (١) **مَا الْقَارِعَةُ** (٢) **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ** } [القارعة:١-٣]

ودلالة " التشويق " تستلزم وجود متلق حاضر فى الصياغة ، لحثه على الوفاء بمضمونها والمسارعة إلى الالتزام بما فيها ، كقول الله تعالى { **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** (١٠) **تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ** } [الصف:١٠،١١]

ويهدف التشويق فى الخطاب الروائى والأساليب السردية إلى زيادة الارتباط بين المتلقى والصياغة ، والتفاعل بينهما لاستنباط القيم الجمالية التى يشتمل عليها النص ، ويرد هذا الأسلوب كثيرا فى القرآن الكريم بصيغة : (هل أتاك ...) .

ودلالة " التحقير " تتجه – أساسا – إلى المتلقى الخاص للتقليل من شأنه ، والحط منه ، ولكنها تعبر – أيضا – عن مشاعر المتكلم تجاهه ، كما جاء فى القرآن الكريم حكاية عن الكافرين { **وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا** } [الفرقان:٤١]

وقول المتنبى بهجو كافورا : [من البسيط]

مِنْ أيَّةِ الطُّرْقِ يَأْتِـى نَحْـوَكَ الكَـرَمُ أيْـنَ المَحاجِـمُ يا كافـورُ والجَلَـمُ ؟ (٤٣)

---

(٤٢) الشوقيات : ٢٦٧/١ .

ومثله دلالة " التهكم " ، كما جاء فى القرآن الكريم حكاية عن قوم شعيب { **قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** } [هود:٨٧]

وقول زهير بن أبى سلمى : [من الوافر]

وَمَـــا أدْرِى وَلَسْـــتُ إخـــالُ أدْرِى أَقَـــوْمٌ آلُ حِصْـــنٍ أمْ نِسَـــاءُ ؟ (٤٤)

والفارق بين التحقير والتهكم يرجع إلى الوظيفة الانفعالية ، وحضور المبدع فى الصياغة " فهو فى التحقير يعبر عما يراه ويعتقده ، أما فى التهكم فإنه يعوم على سطح الكلام ويتهكم بما لا يعتقده أكثر مما يتهكم بما يعتقده ... ويمكن القول بأن التهكم وسيلة والتحقير غاية " (٤٥) .

ودلالة " التهديد والوعيد " تتجه إلى المتلقى بطريق غير مباشر ، حيث يستشعرها المتلقى عن طريق الدلالة التعريضية التى تفرزها وتقويها فى ذهن المتلقى ، كما فى قول الله تعالى { **أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ** (١٦) **ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ** (١٧) **كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** } [المرسلات :١٦-١٨]

ودلالة " الأمر " حين تتولد عن طريق بنية الاستفهام ، يكون تأثيرها فى المتلقى أبلغ وأشد ، لأنها تكون مصحوبة بدلالات الوعظ والزجر ، كما فى قول الله تعالى { **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ** } [المائدة :٩١]

البنية السطحية : هل أنتم منتهون ← استفهام

البنية العميقة : انتهوا ← أمر

قال صاحب الفتوحات الإلهية : " الاستفهام هنا بمعنى الأمر ، بل أبلغ ، لأن الاستفهام عقب ذكر هذه المعايب أبلغ من الأمر بتركها ، كأنه قيل : قد بينت لكم المعايب فهل تنتهون عنها مع هذا ؟ أم أنتم مقيمون عليها كأنكم لم توعظوا " (٤٦) .

وكذلك دلالة " النهى " ، تصحبها دلالات التهكم والتوبيخ فتكون أسرع تأثيرا فى المتلقى ، كما فى قول الشاعر : [من الكامل]

أَتَخَالُنِـى أرْضَـىْ الهـوَانَ ؟ فحـاذِرِ واسْـلَمْ بِنَفْسِـكَ مِـنْ أبـىٍّ قـادِرِ (٤٧)

البنية السطحية : أتخالنى ← استفهام

البنية العميقة : لا تخلنى ← نهى

تتحول بنية الاستفهام إلى بنية النَهىَ (لا تَخَلْنى) لتحذير المتلقى الخاص وتهديده ، وتوبيخه على سوء ظنه .

---

(٤٣) ديوانه : ١٥٠/٤ . الجلم : المقص ، المحاجم : من أدوات الحجامة .

(٤٤) شرح ديوان زهير ، صنعة أبى العباس ثعلب ، تحقيق د / فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٦٥ .

(٤٥) د / عبده قلقيلة : البلاغة الاصطلاحية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، سنة ١٩٨٧ ، ص ١٧٨ .

(٤٦) سليمان بن عمر الجمل : الفتوحات الإلهية ، ٥٢٣/١ ، ويراجع : الزمخشرى : الكشاف ، ٣٦٢/١ .

(٤٧) د / عبده قلقيلة : المرجع السابق ، ١٧٩ .

أما دلالة " النفى " ، فإنها تخلص للصياغة نفسها ، وخدمة دلالتها الكلية ، كما فى تشكيل بنية القصر من الاستفهام المنقلب إلى نفى ، مع أداة الاستثناء ، كقول الله تعالى : { **فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** } [الأحقاف:٣٥]

البنية السطحية : هل يهلك إلا القوم الفاسقون

استفهام + استثناء

البنية العميقة : لا يهلك إلا القوم الفاسقون

نفى + استثناء قصر

وقول البحترى من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن المدبر : [من الطويل]

هَـلِ الدَّهْـرُ إلاَّ كُرْبَـةٌ وانْجِلاؤهـا وَشِـيكًا ، وإلاَّ ضـيْقَةٌ وانْفِراجُهـا ؟ [٤٨]

البنية السطحية : هل الدهر إلا كربة وانجلاؤها

استفهام + استثناء

البنية العميقة : ليس الدهر إلا كربة وانجلاؤها

نفى + استثناء قصر .

وقد تتجه دلالة النفى فى الصياغة بعد ذلك إلى خدمة الوظيفة الانفعالية أو الإفهامية تبعا لضغوط السياق الخارجى والداخلى .

هذا ، والدلالات السياقية لبنية الاستفهام – كما قدمنا – كثيرة لا تحصى [*]

وهى تحتاج إلى تمعن وروية وتدبر فى الصياغة وفى السياق المحيط بها ، للوصول إلى مغزاها والغرض منها ، لأن أكثرها سوانح وإشارات تكون مختفية وملتبسة بنسيج النص ، وتحتاج إلى مراجعة طويلة للبنية الكلية ، والسياق العام .

كما أن بنية الاستفهام الواحدة قد يستشف منها أكثر من دلالة ، لذا قد تختلف وجهات النظر حولها تبعا لوقعها فى النفس .

ثالثا : الأمر :

الأمر : هو طلب حصول الفعل بصيغ محددة على سبيل الاستعلاء [٤٩]

وصيغه هى : فعل الأمر (اصمت) ، والفعل المضارع المقترن باللام (ليصمت) ، واسم فعل الأمر (صه) ، والمصدر النائب عن فعل الأمر (صمتا عند بدء الدرس) .

وبهذا التعريف حدد البلاغيون المواصفات القاعدية لبنية الأمر من ناحية الصيغة ، ومن ناحية الدلالات المحيطة بها (الاستعلاء) ، ليمكن التعرف على المعانى السياقية التى تنتجها ، وهى تنتج –

---

[٤٨] ديوان البحترى ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٣ ، ٤٢٦/١ .

[*] ذكر منها السيوطى ثلاثين معنى فى كتابه الإتقان : ٢٣٤/٢ – ٢٤٠ .

[٤٩] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٧٧ ، وبدر الدين بن مالك : المصباح،ص٩٠ ، والقزوينى : الإيضاح ، ٥٣/٢

غالبا – عن طريق الخروج على دلالة الاستعلاء التى تلازم بنية الأمر فى مستواها القاعدى .

وبتحليل بنية الأمر يتضح لنا أنها تحتوى على ثنائية الداخل والخارج أيضا كبنية الاستفهام ، ولكنها تسير فى اتجاه مضاد لها ، حيث تسير حركة الدلالة فى بنية الأمر من البعد الداخلى الذى يحتوى على جانبى المتكلم والصياغة فى مستواها السطحى ، إلى البعد الخارجى الذى يحتوى على جانبى المتلقى ، والصياغة فى مستواها العميق .

البعد الداخلى ←——————— البعد الخارجى

المتكلم المتلقى

والبنية السطحية للصياغة والبنية العميقة (المعانى السياقية)

وبنية الأمر بنية توليدية – كشأن البنى الإنشائية الأخرى – حيث تستعمل فى غير طلب الفعل بحسب السياق التى ترد فيه ، وهى تكشف بوضوح – بالإضافة إلى بنية النهى – عن جوانب كثيرة من الوظيفة التبجيلية ، حيث تعكس العلاقات الاجتماعية بين من يعطى الأمر ومن يتلقاه .

وتعود المعانى السياقية لبنية الأمر إلى الوظائف الثلاث :

الوظيفة الانفعالية (المتكلم) ، والوظيفة الطلبية (المتلقى) ، والوظيفة الشعرية (الصياغية) ، وقد لا تنفرد كل دلالة بوظيفة لغوية مستقلة ، ولكن قد تتداخل وظيفة أو أكثر فى الدلالة الواحدة .

وحين ترتد المعانى السياقية للأمر إلى الوظيفة الانفعالية لتعبر عن انفعالات المتكلم " فإن فعل الأمر " يبدو ذا طابع مثالى ، ويبدو ضربا من معالجة الخيال . ومن الواضح ، أن المرء يحقق ما يستطيع ، فإذا لم يستطع تحقيق شئ ناداه ، أو دعاه إلى نفسه دعاء ، فالفعل الطلبى واضح فى الدلالة على ما يشبه العجز والقصور، ومحاولة الثبات والرسوخ فى مجال يتعرض للتموج والاضطراب " [٥٠]

وقد يصير فعل الأمر فى دلالاته السياقية قناعا يخفى أغراضا أخرى قد تكون مناقضة لمعنى الاستعلاء الكامن فيه ، " وما قد يسمى طلبا مستعليا قد يحمل آثار الاستسلام ، والبحث عن القوة والثقة من خلال القول ذاته " [٥١]

دلالة " الدعاء " تتحرك فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، وتتجه بؤرتها الدلالية إلى المتكلم ، مع استحضار " المتلقى المباشر " فى الدائرة الدلالية ، وهنا تنزلق دلالة " الاستعلاء " لتصبح فى جانب المأمور (المتلقى المباشر) ، وتحل محلها دلالة " الخضوع والتضرع " فى جانب الآمر (المتكلم) ، وبذلك تنعكس حركة الدلالة لتصير من الأدنى إلى الأعلى على عكس الحركة الدلالية فى الصورة القاعدية للأمر . كدعاء موسى عليه السلام فى القرآن الكريم : { **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** [٢٥] **وَيَسِّرْ لِي**

---

[٥٠] د / مصطفى ناصف : النحو والشعر (قراءة فى دلائل الإعجاز) ، القاهرة ، مجلة فصول، م١، ع٣، سنة ١٩٨١، ص٣٩ .

[٥١] المرجع السابق : ص ٤٠ .

أَمْرِي [٢٦] **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي** [٢٧] **يَفْقَهُوا قَوْلِي** } [طه:٢٥-٢٨]

وقول المتنبى لسيف الدولة : [من الطويل]

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّى بكَبْتِهِمْ ... فَأَنْتَ الَّذى صَيَّرتَهُمْ لِى حُسَّدَا

أجِزْنِى إذا أنْشِدْتَ شِعْرًا فإنَّما ... بِشِعْرِى أتَاكَ المادِحُونَ مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِى فإنَّنِى ... أَنَا الصائحُ المَحْكِىُّ والآخَرُ الصَّدَى [٥٢]

وكذلك تتحرك دلالة " الالتماس " فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، لأن البؤرة الدلالية تتجه فى النهاية إلى المتكلم ، مع حضور الوظيفة الطلبية فى الصياغة حضورا يكاد يكون مساويا للوظيفة الانفعالية ، وبذلك تتوزع الضمائر عليهما ، وتنمحى دلالة الاستعلاء بينهما ، ليحل محلها " التساوى "، كما فى قول امرئ القيس فى مطلع معلقته : [من الطويل]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقول أبى نواس : [من البسيط]

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فإنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ ... وَدَاوِنِى بالّتى كانَتْ هِىَ الدَّاءُ

وتخلص دلالة " التمنى " للوظيفة الانفعالية ، لأن المتلقى المباشر ليس له دور مؤثر ، حيث إن الأمر يوجه إلى ما لا يعقل ، فترتد الدلالة إلى انفعالات المتكلم ورغباته الدفينة وطموحه إلى إضفاء التشخيص والحياة على الأشياء من حوله ، وتشكيل عالم خيالى جديد ، وهنا يبدو المبدع كأنه " منغرس بخياله فى قلب الأشياء فى حلولية كونية كاملة ، فلم يعد هو فى جانب العقلاء ، والليل (والأشياء من حوله) فى جانب غير العاقلين " [٥٣]

كما فى قول امرئ القيس فى معلقته : [من الطويل]

أَلاَ أيُّها اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِى ... بِصُبْحٍ وَمَا الإصْباحُ مِنْكَ بأمْثَلِ

وقول عنترة فى معلقته : [من الكامل]

يا دَارَ عَبْلَةَ بالجَوَاءِ تَكَلَّمِى ... وعِمِى صَبَاحًا دارَ عَبْلَةَ واسْلَمِى

وأكثر معانى الأمر السياقية الباقية تتحرك فى نطاق الوظيفة الطلبية ، حيث إن المتلقى له الحضور المهيمن ، وبؤرة الدلالة تتجه فى النهاية إلى المتلقى المباشر أو العام .

كدلالة " النصح والإرشاد " ، التى تتجه مباشرة إلى المتلقى ، وتتحرك فيها الدلالة من الأعلى (اعتباريا) إلى الأدنى ، ويكون الاستعلاء مصحوبا بدلالات الحكمة ، والرغبة فى إفادة المتلقى ، والحرص على مصلحته ، وذلك يجعله يمتثل للأمر ، ويقبله راضيا عن طيب خاطر ،

كقول البحترى : [من البسيط]

اِقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا ... إنْ بَرَّ عِنْدَكَ فيما قَالَ أوْ فَجَرَا

---

[٥٢] ديوانه : ٢٨٩/١ ، ٢٩١ .

[٥٣] د / رجاء عيد : فى البلاغة العربية ، القاهرة ، مؤسسة كليوباترا ، سنة ١٩٨٣ ، ص ١٠٣ .

فَقَـدْ أطَاعَكَ مَـنْ يُعْطِيـكَ ظاهِـرَهُ وَقَـدْ أجَلَّـكَ مَـنْ يَعْصِـيكَ مُسْـتَتِرا [٥٤]

وقول الشاعر : [من مجزوء الكامل]

اِصْـــبِرْ لدَهْـرٍ نـــالَ مِنْـ ـكَ فَهكَـــذَا مَضَـتِ الدُّهُـــورْ

فَرَحًـــا وحُزْنًـــا مَـــرَّةً لا الحُـــزْنُ دَامَ ولا السُّـــرورْ [٥٥]

وتتجه دلالة " الإباحة " إلى المتلقى ، لأنها تكون فى مقام يتوهم المتلقى فيه حظر شئ عليه ، فتأتى دلالة الإباحة لتأذن له فى ممارسته ومزاولته ، ويكون حضور المتكلم ضروريا ليعلن عن رضائه ومحبته لمزاولة ذلك الفعل المباح ، ووجه حسن استخدام الأمر هنا " إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الأمر حتى كأنه مطلوب " [٥٦]

كقول كثير عزة : [من الطويل]

أَسِيْئِى بِنَـا أو أَحْسِـنى لامَلُومَـةٌ لَدَيْنَـا ، وَلا مَقْلِيَّـةٌ إنْ تَقَلَّـتِ [٥٧]

وتتحرك دلالة " التهديد " فى نطاق الوظيفة الطلبية ، ولكن ناتجها الدلالى يعاكس دلالة الطلب فى الأمر ، حيث يقتضى التهديد رفض الفعل المأمور به ، وتخويف المتلقى من عواقب فعله ، وذلك يقتضى حضور المتكلم حضورا قويا فى الصياغة ، ليعلن عن غضبه ورفضه لهذا الفعل ، كما فى قول الله تعالى : **{ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }** [فصلت :٤٠]

وكذلك دلالة " التعجيز " ، تتواجد فى سياق المستحيلات – أو ادعاء الاستحالة – وبذلك يسير ناتجها الدلالى فى عكس اتجاه دلالة الطلب فى الأمر ، لأن المتكلم يعلم – أو يدعى – استحالة تحقيق المطلوب ، بينما الصياغة القاعدية للأمر تعطى إيحاء بإمكانية تحقق المطلوب ، لأنه يوجه إلى الممكنات على سبيل الاستعلاء . كقول الله تعالى : **{ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ** [٢٣] **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }** [البقرة :٢٣،٢٤]

وبيت الفرزدق المشهور الذى يحتوى الأمر التعجيزى فيه على هجاء مرّ موجع لجرير وآبائه : [من الطويل]

أولَئِـكَ آبائـــى فَجِئْنِـــى بِمِثْلِهِـــمْ إذَا جَمَعَتْنَـــا يـا جَرِيـرُ المجَامِـعُ

وقول الشاعر : [من الطويل]

أرُونِى بَخِيـلاً طَـالَ عُمْـرًا بِبُخْلِـهِ وَهَاتُـوا كَرِيمًـا مَاتَ مِنْ كَثْرَةِ البَذْلِ

---

[٥٤] ينسبان للبحترى فى ديوانه : ١١٠٥/٢ .

[٥٥] البيتان دون عزو فى كتاب سجع المنثور للثعالبى ، تحقيق أسامة البحيرى ، طنطا ، سنة ١٩٩٦ ، ص ٥٧ .

[٥٦] القزوينى : الإيضاح ، ٥٣/٢ ، ٥٤ .

[٥٧] المرجع السابق : ٥٣/٢ .

ودلالة " الإهانة " موجهة إلى المتلقى المباشر المذكور فى الصياغة ، لتحقيره ، وإظهار عدم الاعتداد بشأنه ، لكون المطلوب شيئا خسيسا حقيرا ، وعدم قصد المتكلم حصول الشئ المطلوب ، وإنما الغرض إهانة المأمور وإذلاله . كما فى قول الله تعالى لمنكرى البعث : { **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** [٤٩] **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** } [الإسراء :٤٩ ، ٥٠]

وقول جرير : [من الوافر]

خُـذُوا كُحْـلاً ومَجْمَـرَةً وعِطْـرًا فَلَسْـتُمْ يـا فَـرَزْدَقُ بالرِّجـالِ

وتتحرك دلالة " التسوية " فى نطاق الوظيفة الطلبية (الإفهامية) ، مع بروز أهمية الصياغة التى تطرح أمرين متساويين ، وتتجه الدلالة إلى تصحيح توهم المتلقى أن أحدهما أرجح من الآخر فى الأهمية ، وبذلك يتوزع الناتج الدلالى على المتلقى والصياغة نفسها، كما فى قول الله تعالى للمنافقين: { **قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** } [التوبة :٥٣]

والأمر – كالاستفهام – له معان سياقية كثيرة لا تحصى ، وقد ذكرنا أهمها ، وقد ذكر منها بهاء الدين السبكى خمسة وعشرين معنى ، تتداخل بعضها مع المعانى السابقة ، أو تعود إلى مجالها الدلالى ، وبعضها يتحرك فى مجالات شرعية وفقهية تكاد تبتعد به عن مجال البلاغة . وبقية المعانى التى ذكرها السبكى هى :

١٠ – التسخير	١١– الندب	١٢– الإنذار	١٣– الامتنان
١٤– الإكرام	١٥– الاحتقار	١٦– التكوين	١٧ – الخبر
١٨ – الإنعام	١٩ – التفويض (التسليم)	٢٠ – التعجيب	٢١– التكذيب
٢٢ – المشورة	٢٣– الاعتبار	٢٤– التحريم	٢٥ – التعجب [٥٨]

رابعا : النهى :

النهى : هو طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء [٥٩] ، وصورته الوحيدة : لا الجازمة + الفعل المضارع

ودلالة النهى سالبة ، لأنه طلب الامتناع عن الفعل ، بعكس دلالة الأمر الموجبة . وعندما تزول دلالة الاستعلاء الحقيقى من بنية النهى ، فإنها تنتج دلالات كثيرة تختلف باختلاف السياقات التى تتواجد فيها ، ولكنها تتوزع على وظيفتين رئيسيتين هما : الوظيفة الانفعالية ، والوظيفة الطلبية .

فدلالة الدعاء ، والالتماس ، والتمنى ترتد – كما فى بنية الأمر – إلى الوظيفة الانفعالية ، لتعبر عن انفعالات المتكلم ومشاعره وأمنياته بصفة أساسية .

" الدعاء " يفرغ بنية النهى الحقيقى من دلالة الاستعلاء الملازمة للمتكلم ، ويضفيها على المتلقى المباشر ، بينما يضع المتكلم فى موضع التضرع والخضوع ، كما فى أدعية القرآن الكريم : { **رَبَّنَا لا**

---

[٥٨] بهاء الدين السبكى : عروس الأفراح ، ٣١٢/٢ – ٣٢٢ ، ونقل عنه السيوطى فى الإتقان : ٢٤٢/٢ ، ٢٤٣ .

[٥٩] يراجع : القزوينى : الإيضاح ، ٥٦/٢ ، والسعد التفتازانى : مختصرا المعانى ، ص ١٦٣ .

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } [البقرة :٢٨٦]

وقول النابغة الذبيانى فى اعتذاره إلى النعمان بن المنذر : [من الطويل]

فَــلاَ تَتْرُكَنِّــى بالوَعِيــدِ كَأَنَّنِــى إِلَــى النَّــاسِ مَطْلِيٌّ بِــهِ القَارُ أَجْرَبُ

" والالتماس " يزيل دلالة الاستعلاء ليحل محلها التساوى ، ويكون النهى موجها إلى متلق حقيقى أو اعتبارى ، كما فى قول كثير عزة : [من الطويل]

فَــلاَ تُذْكِــرَاهُ الحَاجِبِيَّــةَ إِنَّــهُ مَتَــى تُذْكِــرَاهُ الحاجِبِيَّــةَ يَحْــزَنِ

وقول أبى العلاء المعرى : [من البسيط]

لاَ تَطْوِيا السِّــرَّ عَنِّى يَــوْمَ نائِبَــةٍ فَــإِنَّ ذلِــكَ ذَنْــبٌ غَيْــرُ مُغْتَفَــرِ

" والتمنى " يدخل بنية النهى فى دائرة الاستحالة ، لأنها تتوجه إلى ما لا يعقل ، فترتد الدلالة إلى الذات المبدعة لتترجم عن أمنياتها ، ورغبتها فى تشكيل عالم خيالى متناغم مع أمانيها الدفينة ، كما فى قول الشاعر : [من مجزوء الكامل]

يــا لَيْــلُ طُــلْ ، يــا نَــوْمُ زُلْ يــا صُــبْحُ قِــفْ لا تَطْلُــعِ

وقول الخنساء : [من المتقارب]

أَعَيْنَــىَّ جُــودَا وَلاَ تَجْمُــدَا أَلاَ تَبْكِيــانِ لِصَــخْرِ النَّــدَى ؟

وتتحرك بقية الدلالات فى نطاق الوظيفة الطلبية ، حيث تتجه بؤرة الدلالة إلى المتلقى الداخلى المذكور فى الصياغة ، أو المتلقى العام .

كدلالة " النصح والإرشاد " ، كما فى بيت بشار بن برد : [من الطويل]

وَلاَ تَجْعَلِ الشُّــورَى عَلَيْــكَ غَضَاضَةً فَــإِنَّ الخَوافِــى قُــوَّةٌ لِلْقَــوادِمِ

وقول أبى العلاء المعرى : [من الوافر]

ولا تجْلِــسْ إلــى أهْــلِ الدَّنايــا فَــإِنَّ خَلائِــقَ السُّــفهاءِ تُعْــدِى

ودلالة " التوبيخ " ترتد إلى المتلقى عن طريق استحضار بداية حركة الدلالة فى بنية النهى ، وهى الفعل المنهى عنه ، وهو يكون فعلا يحط من شأن فاعله ، ويستوجب اللوم والتوبيخ ، ثم يسلط عليه النهى طلبا للكف عنه ، وبذلك ترتبط دلالة التوبيخ بالمتلقى ،

كما فى قول أبى الأسود الدؤلى : [من الكامل]

لا تَنْــهَ عَــنْ خُلُــقٍ وَتَأتِــىَ مِثْلَــهُ عَــارٌ عَلَيْــكَ إِذَا فَعَلْــتَ عَظِيــمُ

وتتجه دلالة " الإهانة والتحقير " إلى المتلقى المباشر المذكور فى الصياغة ، كما جاء فى القرآن الكريم خطابا لأهل النار **{ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ }** [المؤمنون :١٠٨]

وكما جاء فى بيت الخطيئة المشهور فى الزبرقان بن بدر : [من البسيط]

دَعِ المَكــارِمَ لا تَرْحَــلْ لِبُغْيَتِهــا وَاقْعُــدْ فإِنَّــكَ أَنْــتَ الطَّاعِمُ الكاسِى

ويبرز دور المتكلم فى دلالة " التعجيز " والتيئيس عن طريق معرفته عدم جدوى الفعل ، وانتفاء

ثمرته ، ثم تتجه بؤرة الدلالة فى النهاية إلى المتلقى لتعجيزه وتيئيسه ، وقطع كل خيوط الأمل عنده ، كما فى قول الله تعالى للمنافقين { **لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } [التوبة : ٦٦]

وقول المتنبى فى ختام قصيدة فى مدح سيف الدولة : [من البسيط]

لاَ تَطْلُبَـنَّ كَرِيمًـا بَعْـدَ رُؤيَتِـهِ إنَّ الكِـرَامَ بأَسْخَاهُـمْ يَـدًا خُتِمُـوا

وَلاَ تُبَـالِ بِشِـعْرٍ بَعْـدَ شَاعِـرِهِ قَـدْ أُفْسِـدَ القَـوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ [٦٠]

والنهى – كالأمر – ينتج دلالات سياقية كثيرة ، وقد ذكر بهاء الدين السبكى أن أغلب المعانى السياقية التى تولدها بنية الأمر ، يمكن أن تولدها بنية النهى [٦١] .

خامسا : النداء

حقيقة النداء : طلب إقبال المدعو على الداعى بأحد حروف مخصوصة [٦٢]

وحروف النداء قسمان :

الأول : لنداء القريب ، ويشمل : الهمزة ، وأىْ

الثانى : لنداء البعيد ، ويشمل ، يا ، وأيا ، وهَيَا ، و وَا .

على اختلاف بين النحاة فى اختصاص أدوات معينة بنداء القريب أو البعيد [٦٣] .

وأدوات النداء نائبه عن فعل تقديره : أدعو ، أو أطلب ، أى أنها تتحول فى البنية العميقة إلى فعل يدل على الطلب .

وقد استغل البلاغيون دلالة القرب والبعد فى أدوات النداء ليشكلوا صورة بلاغية للنداء تتحقق بخروج أداة النداء عن أصل دلالتها التى ألصقوها بها .

فنداء القريب بأداة نداء البعيد ينتج دلالات بلاغية وجمالية تتحرك فى نطاق الوظيفة الإفهامية ، وتتجه بؤرتها إلى المتلقى المباشر أو العام ، للدلالة على علو شأنه وتعظيمه ،

كما فى قول أبى نواس : [من الكامل]

يـا رَبِّ إنْ عَظُمَـتْ ذُنُوبِـىَ كَثْـرَةً فَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِـأنَّ عَفْـوَكَ أعْظَـمُ

وقول المتنبى فى سيف الدولة : [من البسيط]

يَـا مَـنْ يَعِـزُّ عَلَيْنـا أن نُفَارِقَهُـمْ وِجْدَانُنَـا كُـلَّ شَـىْءٍ بَعْدَكُـمْ عَـدَمُ

أو للدلالة على انحطاطه وتدنِّيه ، كما فى قول الشاعر : [من الوافر]

أَيَـا هَـذا أَتَطْمَـعُ فِـى المَعَالِـى وما يَحْظَـى بِهـا إلاّ الرِّجَـالُ

أو للدلالة على غفلته ، وسوء تقديره لعواقب الأمور ، كقول أبى العتاهية : [من الوافر]

---

[٦٠] ديوانه : ٢٦/٤ . (رحم الله المتنبى ، كيف لو اطلع على الشعر فى زماننا ؟!!)

[٦١] البهاء السبكى : عروس الأفراح ، ٣٧٢/٢ .

[٦٢] بهاء الدين السبكى ، عروس الأفراح ، ٣٣٣/٢ ، والسيوطى : الإتقان ، ٢٤٦/٢ .

[٦٣] يراجع : ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ٤/٤–٧ .

openkanar.com

أيَا مَنْ عَـاشَ فـى الدُّنْيَـا غريبًـا وَأَمْضَـى العُمْـرَ فِـى قِيـلٍ وَقَـالِ
هَـبِ الدُّنْيَا تُسَـاقُ إلَيْـكَ عَفْـوًا أَلَيْـسَ مَصِـيرُ ذلِـكَ للـزَّوَالِ

أما مناداة البعيد بأداة القريب ، فينتج دلالات بلاغية تتحرك – فى الغالب – فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، لتعبر عن انفعالات المتكلم ، وشوقه الدائم إلى ما يناديه ، وأن هذا المنادى قريب منه دائما ، حاضر فى قلبه وفى وعيه باستمرار .

كما فى قول الشاعر : [من الطويل]

أَسُـكّانَ نَعْمَـانَ الأَرَاكِ تَيَقَّنُـوا بِأَنَّكُـمُ فِـىْ رَبْـعِ قَلْبِـىَ سُكَّانُ

وقول ابن زيدون : [من الطويل]

أَغَائبَـةٌ عَنِّـى ، وحَاضِـرَةً مَعِـى أُنَادِيـكِ لَمَّا عِيْلَ صَـبْرِىَ فَاسْـمَعِى
أَفِى الحَـقِّ أنْ أشْقَى بِحُبّـِكِ أوْ أُرِى حَرِيقًـا بأنفاسـى ، غَرِيقـا بَأدمعـى (٦٤)

وهذه الصورة البلاغية فيها من النداء الحقيقى معنى الإقبال ، والدلالات البلاغية السياقية التى تتحقق فيها تنتج من خروج أدوات النداء عن مقتضى ظاهر الدلالة الأصلية ، واستعمالها عكسيا ، فالأدوات الدالة على نداء القريب تستخدم فى نداء البعيد ، والعكس (٦٥)

وحين تتخلص بنية النداء من دلالة الإقبال ، فإنها تنتج دلالات سياقية متعددة ، يتحرك معظمها فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، ويتحرك بعضها فى نطاق الوظيفة الإفهامية . فدلالة " التحسر والحزن واللوعة " تتحرك فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، لتعبر عن انفعالات المبدع ، ومشاعره الملتاعة التى تفيض بالألم والحسرة ،

كما فى قول الحسين بن مطير الأسدى فى رثاء معن بن زائدة الشيبانى : [من الطويل]

أَيَـا قَبْـرَ مَعْـنٍ كُنْـتَ أَوَّلَ حُفْـرَةٍ مِـنَ الأَرْضِ خُطَّتْ للسَّمَاحَةِ مَوْضِعا
وَيَا قَبْرَ مَعْـنٍ كَيْـفَ وارَيْـتَ جُـوْدَهُ ؟ وَلَوْ كـانَ حَيًّـا ضِـقْتَ حَتَّـى تصدَّعَا
فَتًـى عِيْشَ فِى مَعْرُوفِـهِ بَعْـدَ مَوْتِـهِ كَمَـا كـانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْـراهُ مَرْتَعَا

ودلالة " الحنين والتشوق " تتحرك فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، وفيها يوجه النداء إلى غير العاقل ليترجم عن أمنيات المتكلم الدفينة فى القرب من الأحبة ، والحنين إلى لقائهم .

كقول ابن زيدون فى نونيته المشهورة : [من البسيط]

يا سَارِىَ البَرْقِ غادِ القَصْرَ واسْقِ بِـهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الهَوَى والـوُدِّ يَسْـقِينَا
ويـا نَسِـيمَ الصِّـبَا بَلِّـغْ تَحِيَّتَنَـا مَـنْ لَـوْ عَلَى القُرْبِ حَيًّا كانَ يُحْيِينَـا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْـرَ يَقْضِـيْنَا مُسَـاعَفَةً مِنْـهُ و إنْ لـم يَكُـنْ غِبًّـا تَقَاضِينَـا ؟

ونداء غير العاقل – كبقية الأساليب الإنشائية التى توجه إلى ما لا يعقل – يهدف إلى إضفاء

---

(٦٤) ديوان ابن زيدون ، تحقيق سيد كيلانى ، القاهرة ، مكتبة البابى الحلبى ، ط٣ سنة ١٩٦٥ ، ص ١٨٤ .

(٦٥) يراجع : د / عبده قلقيلة : البلاغة الاصطلاحية ، ص ١٨٦ ، ١٨٨ .

الحياة على مظاهر الوجود التى تحيط بالشاعر ، وهو يشير إلى منزع نفسى عميق فى نفس المبدع يدفعه إلى " الاندماج فى الأشياء ، والاقتراب منها ، وبث الروح الإنسانية فيها ، لتكون قادرة على المشاركة والإحساس بما يحسه الشاعر من مشاعر مختلفة .الشاعر هنا يحرص على إحياء الأشياء من حوله ، وتأنيسها ، ومخاطبتها ، وخلق الإحساس الإنسانى فيها ، فتبكى لأوجاعه ، وتحن لحنينه ، وتسمع أقدس عواطفه ، وأنبل اختلاجاته " [٦٦]

وتتحرك دلالة " التعجب " فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، لتعبر عن موقف المتكلم تجاه سلوك محير ، أو تعبر عن إعجابه وانبهاره بشىء خارجى .

كما فى قول الله تعالى : { **يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون** } [يس : ٣٠] ، قال ابن خالويه : " هذه من أصعب مسألة فى القرآن ، لأن الحسرة لا تنادى ، وإنما ينادى الأشخاص ، لأن فائدته التنبيه ، ولكن المعنى على التعجب " [٦٧]

وقول طرفة بن العبد : [من الرجز]

يَالَكِ مِنْ قُبَّرَةٍ بِمَعْمَرِ خَلاَ لَكِ الجَوُّ ، فَبِيضِى واصْفِرِى [٦٨]

وتتحرك دلالة " الندبة " فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، لتعبر عن فجيعة المتكلم بفقد شئ أو شخص عزيز لديه ، كما فى قول المتنبى فى عتاب سيف الدولة : [من البسيط]

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمِى وَحَالِى عِنْدَهُ سَقَمُ [٦٩]

أما دلالة " الاستغاثة " ، فهى تتحرك – فى الغالب – فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، إذا كان حضور المتكلم ملحوظا فى الصياغة ، كما فى قول قيس بن ذريح : [من الوافر]

تَكَنَّفَنِى الوُشَاةُ فأزْعَجُونِى فَيَا لَلنَّاسِ لِلْوَاشِى المُطَاعِ [٧٠]

وقد تتحرك دلالة " الاستغاثة " فى نطاق الوظيفة الطلبية ، فتتجه بؤرتها الدلالية إلى متلق مباشِر مذكور فى الصياغة ، كقول الشاعر : [من الخفيف]

يا لَقَوْمِى ويا لأَمْثَالِ قَوْمِى لأُناسٍ عُتُوُّهُمْ فِى ازْدِيَادِ

ودلالة " الاختصاص " يقصد بها تخصيص حكم منصب على ضمير سابق باسم ظاهر لاحق . صورته صورة المنادى ، وليس منادى حقيقة [٧١] . وهنا تبرز أهمية الصياغة فى تحريك الدلالة فى نطاق الوظيفة الانفعالية ، إذا كان المقصود بالاسم الظاهر هو المتكلم نفسه ، وذلك يولد دلالات

---

[٦٦] د / محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٢٦٦ .

[٦٧] السيوطى : الإتقان ، ١٢٠/٣ .

[٦٨] ديوان طرفة بن العبد ، جمع مهدى ناصر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ سنة ١٩٨٧ ، ص ٤٩ . ومعمر : اسم مكان نصب فيه فخا للصيد ، ولم تقع فيه قبرة واحدة .

[٦٩] ديوانه : ٣٦٢/٣ ، شبم : بارد .

[٧٠] سيبويه : الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٢١٦/٢ .

[٧١] د / عبده قلقيلة ، البلاغة الاصطلاحية ، ص ١٨٩ .

إضافية تعتمد على دلالة الاسم الظاهر ، كالفخر ، مثل : علىَّ ، أيها المقدام ، يتوقف النصر أو التواضع ، مثل : أنا ، أيها الفقير إلى عفو ربه ، أكتب الكتاب .

وقد تحرك الصياغة دلالة الاختصاص فى نطاق الوظيفة الطلبية ، حين يكون المقصود بالاسم الظاهر متلقيا مذكورا فى الصياغة ، وذلك يولد دلالات إضافية تعتمد على الصياغة ، كالتعظيم وعلو الشأن ، كما فى قول الله تعالى : { **رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** } [هود:٧٣]

أو الإهانة والانحطاط والتدنى ، مثل : لعنةُ الله عليكم أبناءَ القردة والخنازير .

وتتحرك دلالة " التهديد والوعيد " فى نطاق الوظيفة الطلبية ، حيث تتجه بؤرتها الدلالية فى النهاية إلى المتلقى ، مع الوضع فى الاعتبار حال المتكلم ، وموقفه الانتقامى كما فى قولِ مهلهل بن ربيعة : [من المديد]

يَـا لَبَكْـرٍ أَنْشِـرُوا لِـى كُلَيْبًـا يَـا لَبَكْـرٍ أَيْـنَ أَيْـنَ الفِـرَارُ ؟ (٧٢)

البيت مفعم بالأساليب الانشائية التى تتجه لتدعيم دلالة التهديد والوعيد بالانتقام المروع (تكرار النداء ، والأمر التعجيزى ، وتكرار أداة الاستفهام) .

وكذلك تتحرك دلالة " الإغراء " فى نطاق الوظيفة الطلبية ، لحث المتلقى على التمادى فى فِعْله ، أو تعديله بما يتوافق مع مصلحة المتكلم ، وهنا يبرز دور المتكلم فى هذه الدلالة .

كما فى عتاب المتنبى لسيف الدولة : [من البسيط]

يَـا أَعْـدَلَ النَّاسِ إلاَّ فِـى مُعامَلَتِـى فِيْـكَ الخِصَـامُ وأَنْتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

أُعِيذُهَـا نَظَـرَاتٍ مِنْـكَ صَـادِقَةً أَنْ تَحْسَـبَ الشَّـحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

النداء – هنا – يحتوى على شكوى عميقة من جفاء سيف الدولة وسوء معاملته فى فترة من الفترات ، وحثٍّ له على تغيير موقفه منه ، وعدم الاستماع إلى الوشاة .

وقد تنتج بنية النداء دلالات سياقية أخرى كثيرة تبعا للسياقات المتعددة التى يمكن أن تتواجد فيها ، وقد تختلف آراء المتلقين فيها تبعا لاختلاف زوايا النظر إليها .

---

(٧٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢١٥ .

obeikandi.com

جماليات التبادل بين الخبر والإنشاء

التبادل الصياغى بين الخبر والإنشاء لا يشير إلى تغيير فى المستوى السطحى للصياغة فقط ، وإنما يشير بالدرجة الأولى إلى تغيير عميق فى مستوى الشعور بالموضوع الذى يعبر عنه بأحد الأسلوبين بديلا عن الآخر . وقد صرح السكاكى بأن التبادل بين الخبر والإنشاء يعد خروجا عن مقتضى الظاهر ، لتحقيق غايات جمالية تضفى على الخطاب الأدبى تأثيرا بالغا يقترب من السحر ، فقال : " واعلم أن الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر ، وكذلك الخبر فيذكر أحدهما فى موضع الآخر ، ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخى نكت قلما يتفطن لها من لا يرجع إلى دربة فى نوعنا هذا ، ولا يعض فيه بضرس قاطع ، والكلام بذلك متى صادف متممات البلاغة افترّ لك عن السحر الحلال بما شئت " [٧٣] .

أولاً : استعمال الأسلوب الخبرى فى موضع الأسلوب الإنشائى :-

ذكر الصياغة الخبرية فى موضع الصياغة الإنشائية ينتج دلالات بلاغية وجمالية تتحرك فى نطاق الوظيفة الانفعالية (المتكلم) ، والوظيفة الإفهامية (المتلقى) . كدلالة التفاؤل بحصول شىء مأمول ، والحرص على وقوعه ، كقول الجاحظ فى صدر كتابه (البخلاء) : " تولاَّكَ الله بحفظه ، وأعانك على شكره ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته " [٧٤]

البنية السطحية : تولاك ، وأعانك ، ووفقك ، وجعلك

أفعال ماضية ⟵ أسلوب خبرى

البنية العميقة : (اللهم) تولَّه ، وأعنه ، ووفقه ، واجعله

أفعال أمر ⟵ أسلوب إنشائى

قصد الذات المبدعة يظهر بوضوح فى خروج الصياغة فى أسلوب خبرى ، لأنها تحقق أهدافا بلاغية وجمالية ، منها :

١ – إشاعة التفاؤل بوقوع الدعوات الصالحة التى تحفل بها الصياغة .

٢ – إظهار الحرص على حصولها ، وذلك ظاهر فى استعمال الأفعال الماضية التى تفيد تمام الحدث وانقطاعه ، فهى تحقق للمتلقى واقعا تخييلا يوافق رغباته الداخلية " فالطالب متى تبالغ حرصه فيما يطلب ، ربما انتقشت فى الخيال صورته لكثرة ما يناجى به نفسه ، فيخيل إليه غير الحاصل حاصلا " [٧٥]

٣ – توفير حضور خطابى للمتلقى ، يكفل له الحضور المعنوى والصياغى ، وذلك يضفى عليه

---

[٧٣] السكاكى : المفتاح ، ص ١٧٩ .

[٧٤] الجاحظ : البخلاء ، تحقيق د / طه الحاجرى ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٧ سنة ١٩٩٠ ، ص ١ .

[٧٥] السكاكى : المفتاح ، ص ١٨٠ .

التشريف والتعظيم ، وقد كان الأسلوب الإنشائى سيجعل حضور المتلقى بواسطة ضمائر الغياب ، فيكون حضورا غيابيا تهميشيا .

ويكفل استعمال الخبر فى موضع الإنشاء تحقيق الوظيفة التبجيلية التى تعلى من شأن المتلقى ، حيث تستبعد – عمدا – أساليب الخطاب الجافى ، فيتم استبعاد أفعال الأمر من الصياغة تأدبا مع المخاطب ، واحتراما له ، ولحثه على أداء المطلوب بألطف وجه [٧٦] .

كما يوجه (استعمال الخبر فى موضع الإنشاء) المتلقى إلى الامتثال ، والمسارعة إلى أداء المطلوب ، مثل قول الله تعالى : **{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [١٠] تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }** [الصف : ١٠،١١]

البنية السطحية : تؤمنون ، وتجاهدون ←

أفعال مضارعة أسلوب خبرى ←

البنية العميقة : آمنوا ، وجاهدوا [٧٧]

أفعال أمر ← أسلوب إنشائى

يهدف استبدال الصياغة الخبرية بالصياغة الإنشائية إلى تحقيق عدة دلالات :

١ – حث المتلقى على الإسراع بتنفيذ التوجيهات الواردة فى الآية الكريمة ، حيث ظهرت الصياغة فى المستوى السطحى كأن المأمورين سارعوا بتنفيذ ما أمروا به ، وها هى الآية تخبر عن امتثالهم بالأسلوب الخبرى الوصفى .

٢ – توجيه المتلقى إلى الحرص على استمرار الإيمان ، والجهاد ، والإنفاق ، لأن ذلك هو سبيل تحقيق الخير والفوز ، وإيثار الأفعال المضارعة الدالة على التجدد والاستمرار دليل على ذلك .

ثانياً : استعمال الأسلوب الإنشائى فى موضع الأسلوب الخبرى :-

يهدف العدول عن الأسلوب الخبرى إلى الأسلوب الإنشائى إلى تحقيق أغراض بلاغية تتوزع على الوظيفة الانفعالية (المتكلم) ، والوظيفة الإفهامية (المتلقى) كدلالة الرضا بالواقع الصياغى حتى كأنه مطلوب تحقيقه فى الواقع الفعلى ،

كقول الرسول ﷺ : " **مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدا فليتبوَّأ مَقْعَدَه مِنَ النار** "

البنية السطحية : كذب فليتبوَّأ

فعل ماض ← فعل أمر

أسلوب خبرى ← أسلوب إنشائى

البنية العميقة : كذب ← تبوأ ، أو فقد تبوّأ

فعل ماض فعل ماض

---

[٧٦] المرجع السابق : ١٨٠ .

[٧٧] نفسه : ص ١٨٠ .

obeikandl.com

أسلوب خبرى ← أسلوب خبرى

يتضمن العدول عن الأسلوب الخبرى إلى الأسلوب الإنشائى (فلْيتبوّأ) تحذيرا شديدا ، وتهديدا ووعيدا بالمصير المظلم الذى سوف يؤول إليه الكاذب على رسول الله ﷺ ، كما يشير إلى رضا الرسول – على رحمته ورأفته بأمته – بهذا المصير المؤلم وطلبه له ، ويتضمن استعمال فعل الأمر إهانة بالغة للكاذب وتحقيرا له بجعله فى منزلة المأمور المهان .

وتنصب دلالة الاهتمام والعناية على الصياغة ذاتها ، وهى تتجه إلى المتلقى من خلال الأسلوب الإنشائى الذى يحتل المتلقى بؤرة تشكيله ودلالته ، كما فى قول الله تعالى : **{ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ }** [الأعراف :٢٩]

البنية السطحية : أمر أقيموا

فعل ماض ← فعل أمر

أسلوب خبرى ← أسلوب إنشائى

البنية العميقة : أمر (بالقسط) ← (أمر) بإقامة الصلاة

فعل ماض ← فعل ماض

أسلوب خبرى ← أسلوب خبرى

وينتج العدول عن الأسلوب الخبرى إلى الأسلوب الإنشائى دلالة الاحتراز عن مساواة شئ لاحق بشئ سابق ، وهذه الدلالة ترتد إلى الصياغة نفسها لتقيم فارقا تشكيليا ملحوظا بين دوال سابقة و دوال لاحقة ، أو بين نوعين متفاوتين فى الأهمية والقدر من المخاطبين [٧٨] ، كما جاء فى القرآن الكريم حكاية عن هود عليه السلام : **{ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ }** [هود :٥٤]

البنية السطحية : أشهد (الله) ← واشهدوا

فعل مضارع ← فعل أمر

أسلوب خبرى ← أسلوب إنشائى

شكلت الصياغة فارقا لفظيا ملحوظا بين إشهاد (الله) ، وإشهاد (قوم هود)

البنية العميقة : أشهد (الله) ← وأشهدكم (قوم هود)

فعل مضارع ← فعل مضارع

أسلوب خبرى ← أسلوب خبرى [*]

---

[٧٨] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٨١ ، وعبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ، ٦٠/٢ (هامش ٢) .

[*] آثر الباحث عدم الإسهاب فى تحليل الآيتين الأخيرتين ، لأنهما سيحللان فى الباب الثالث (علم البديع) ، فى مبحث الالتفات فى الزمن ، ، وذلك منعا للتكرار .

obeikandl.com

الفصل الثالث

التقديم والتأخير المعنوى

١ ـ مخالفة الترتيب الزمنى
٢ ـ مخالفة الترتيب المكانى
٣ ـ مخالفة الترتيب التشريفى
٤ ـ القلـــب

obeikandl.com

التقديم والتأخير المعنوى

قواعد إعادة الترتيب (Rearrangement rules) من الخصائص الكلية المهمة فى اللغات الإنسانية [١] ، حيث إن لكل لغة نظاما معتادا فى ترتيب عناصر الجملة ، ولكن هذا النظام ليس مطردا دائما ، ففى أحوال كثيرة يتم العدول عنه ، والخروج على قواعده ، بتحريك عنصر معين – تقديما أو تأخيرا – بناء على أهميته فى تشكيل الجملة .

ولكى نحكم على لغة من اللغات بالمرونة أو التصلب ، لابد أن ننظر إلى طبيعة قواعد ترتيب العناصر فيها ، وإلى مدى مخالفة هذه القواعد ، " فمما يميز فصائل اللغات بعضها عن بعض نظام ترتيب العناصر من ناحية ، وألوان تغيير الترتيب من ناحية أخرى "[٢]

وإذا نظرنا إلى عناصر الجملة فى اللغة العربية ، وجدناها كلها معرضة لتغيير أماكنها بالتقديم أو التأخير ، يشترك فى ذلك المسند إليه (المبتدأ ، والفاعل) والمسند (الخبر والفعل) ، ومتعلقات الفعل (تتقدم على الفعل ، وتتقدم بعض متعلقات الفعل على بعض) .

وقد وضع النحاة أصلا مثاليا لترتيب العناصر فى الجملة العربية ، تسيطر عليه الحركة الأفقية المنتظمة ، وهو يمثل البنية العميقة لتركيب الجملة ، ويعكس الترتيب الأمثل لعناصرها .

الجملة الاسمية : المسند إليه + المسند

المبتــدأ + الخبر

الجملة الفعلية : المسند + المسند إليه + متعلقات المسند

الفعل + الفاعــل + متعلقات الفعل

وتغيير الترتيب (بالتقديم أو التأخير) يمثل عدولا عن هذا الأصل المثالى ، واختراقا للحركة الأفقية المنتظمة المسيطرة على بنيته العميقة ، تبعا لعنصر القصد عند المبدع ، حيث تتوافق البنية السطحية المخالفة مع اتجاه الحركة الذهنية عند المبدع ، " فالتقديم والتأخير يرجع إلى فنية الأديب ، وهذه الفنية المتشابكة مع حسه الشعورى واللاشعورى ، هى التى تتدخل فى التركيب اللغوى للعبارة "[٣] وكان " سيبويه " قد ذكر سببا عاما لتقديم أحد عناصر الجملة ، وهو " الاهتمام والعناية " ، حيث قال عند ذكر الفاعل والمفعول : " كأنهم إنما يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهما نهم ويعنيانهم " [٤]

---

[١] د / عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، سنة ١٩٨٨ ، ص ١٥٤

[٢] د / محمد الهادى الطرابلسى : خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ٢٨٣ .

[٣] د / رجاء عيد : فى البلاغة العربية ، القاهرة ، مؤسسة كليوباترا ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٤٩ .

[٤] سيبويه : الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤/١ .

obeikandl.com

ونبه عبد القاهر الجرجانى إلى أن هذا السبب عام مجمل ، وأخذ على النحاة متابعتهم لقول سيبويه دون تفصيل أو تمحيص ، فقال : " وقد وقع فى ظنون الناس أنه يكفى أن يقال : إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم ، من غير أن يذكر ، من أين كانت تلك العناية ؟ وبمَ كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك ، قد صَغُر أمر " التقديم والتأخير " فى نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف ، ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه " [٥]

وعندما تتبع البلاغيون سياقات التقديم ، تراوح رصدهم لمسوغاته بين الجبر (أى أن التقديم هو الأصل المثالى ، ولا مقتضى للعدول عنه) والاختيار (أى قصد المبدع ، واحتياجات المتلقى) .

فهم يقولون عن أسباب تقديم المسند إليه : لكون ذكره أهم ، إما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، وإما ليتمكن الخبر فى ذهن السامع ، لأن فى المبتدأ تشويقا إليه ، وإما لتعجيل المسرة ، أو لتعجيل المساءة ، وإما لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر ، أو أنه يُسْتَلَذ ، فهو إلى الذكر أقرب ، أو لإظهار تعظيمه ، أو تحقيره ، وإما لأن كونه متصفا بالخبر يكون هو المطلوب لا نفس الخبر ، وقد يقدم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلى ، إن ولى المسند إليه حرف النفى [٦] .

ويقولون عن مسوغات تقديم المسند : إما لتخصيصه بالمسند إليه ، وإما للتنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت ، وإما للتفاؤل ، وإما للتشويق ، أو لإظهار التألم [٧] .

وعن تقديم متعلقات الفعل عليه يقولون : لرد الخطأ فى تعيين من وقع عليه الفعل ، والتخصيص[٨]

وعن تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض يقولون : لأن أصله التقديم ، ولا مقتضى للعدول عنه، وإما لأن ذكره أهم ، والعناية به أتم ، أو لأن فى التأخير إخلالا بالمعنى ، أو لرعاية التناسب الإيقاعى ، كرعاية الفاصلة [٩] .

وذكر السيوطى أن " شمس الدين بن الصائغ" ألف كتابا بعنوان " المقدّمة فى سر الألفاظ المقدَّمة"، بحث فيه أسرار التقديم فى القرآن الكريم وأسبابه ، وذكر منها عشرة أنواع :

التبرك ، والتعظيم ، والتشريف ، والمناسبة ، والحث عليه والحض على القيام به ، والسبق ، والسببية ، والكثرة ، والترقى من الأدنى إلى الأعلى ، والتدلى من الأعلى إلى الأدنى .

وذكر غير ابن الصائغ أسبابا أخرى للتقديم ، منها : كونه أدل على القدرة ، وأعجب . [١٠]

بالنظر إلى أسباب التقديم والتأخير نجد أنها تتركز على اعتبارات يعود بعضها إلى المبدع وحركته

---

[٥] عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه محمود شاكر ، ص ١٠٨ .

[٦] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، والقزوينى : الإيضاح ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، و عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

[٧] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٢٣ – ١٢٥ ، والقزوينى : الإيضاح ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

[٨] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٣١ – ١٣٣ ، والقزوينى : الإيضاح ، ص ٢٢٧ – ٢٣٠ .

[٩] يراجع : السكاكى : المفتاح ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، والقزوينى : الإيضاح ، ص ٢٣٠ – ٢٣٦ .

[١٠] السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٣/٣٥ – ٤١ .

الذهنية (كالإيهام بحضوره فى الخاطر ، والاستلذاذ به ، وإظهار التألم) ، ويعود بعضها إلى المتلقى واحتياجاته الدلالية (كالتشويق ، والتفاؤل ، وتعجيل المسرة ، وتعجيل المساءة ، والتنبيه من أول الأمر على أن المسند خبر لا نعت ، ولأن فى التأخير إخلالا بالمعنى المراد توصيله إلى المتلقى ، ورد الخطأ فى تعيين من وقع عليه الفعل) ويخلص بعضها الثالث للصياغة ذاتها ، على معنى أنه من طبيعتها المثالية (إذا كان الأصل التقديم ، ولا مقتضى للعدول عنه) [١١]

وبداية يمكن استبعاد الأسباب التى تعود إلى الحفاظ على الأصل المثالى للصياغة من الدائرة الجمالية ، لأنها لا تترك للمبدع حرية الاختيار الإبداعى ، وتحقيق الحسن والمزية ، ولا توفر للمتلقى إمكانية التفاعل التأويلى مع الصياغة ، لأنه – كما قال عبد القاهر – " إذا كان بينا فى الشئ أنه لا يحتمل إلا الوجه الذى هو عليه حتى لا يشكل ، وحتى لا يحتاج فى العلم بأن ذلك حقه ، وأنه الصواب ، إلى فكر وروية ، فلا مزيّة . وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل فى ظاهر الحال غير الوجه الذى جاء عليه وجها آخر ، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ، ورأيت للذى جاء عليه حسنا وقبولا تعدمهما إذا أنت تركته إلى الثانى " [١٢]

والأسباب الأخرى للتقديم والتأخير التى ذكرها البلاغيون تدور كلها فى سياق مقتضى الظاهر ، كما صرح بذلك السكاكى [١٣] ، حيث إن مقتضيات الصياغة ، والأحوال الظاهرية للمبدع والمتلقى هى التى ترشح التقديم أو التأخير .

وهذا البحث يدرس البنى التى تخالف مقتضى الظاهر ، لذا سوف يركز الباحث على حالات التقديم والتأخير التى تعدل فيها الصياغة السطحية عن مقتضى البنية العميقة ، وعن مقتضى الحركة الأفقية المنتظمة التى تحكمها من ناحية ، وتخالف المعانى العقلية الموجبة لتقديم عنصر من عناصر التركيب من ناحية أخرى .

وقد وضح " الزجاجى " أن التقديم والتأخير يعود إلى أسباب طبيعية ، أو عقلية مقبولة أو أسباب طارئة قد توجب التقديم ، فقال : " للأشياء مراتب فى التقديم والتأخير إما بالتفاضل ، أو بالاستحقاق ، أو بالطبع ، أو على حسب ما يوجبه المعقول " [١٤] .

وذكر يحيى بن حمزة العلوى أن المعانى لها فى التقديم أحوال خمسة :

١ – تقديم العلة على معلولها .

٢ – التقديم بالذات ، وهذا نحو تقدم الواحد على الاثنين .

٣ – التقدم بالشرف ، وهذا نحو تقدم الأنبياء على الأتباع ، والعلماء على الجهال .

---

[١١] د / محمد عبد المطلب : البلاغة العربية (قراءة أخرى) ، ص ٢٣٨ ، ٢٥٣ .

[١٢] عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، ص ٢٨٦ .

[١٣] السكاكى : مفتاح العلوم ، ص١١١ ، حيث قال بعد ذكر أحوال المسند إليه : واعلم أن جميع ذلك هو مقتضى الظاهر"

[١٤] السيوطى : الأشباه والنظائر فى النحو ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٥ ، ٧٦/١ .

٤ – التقدم بالمكان ، نحو تقدم الإمام على المأموم .

٥ – التقدم بالزمان ، نحو تقدم الشيخ على الشاب [١٥] .

وتستند هذه المعانى إلى مرجعية ثابتة فى عقل المتلقى ، هى معرفته التراكمية بالعالم ، وبأنساق الترتيب التى تحكمه . ويمثل الترتيب العادى للوقائع فى الخطاب مظهرا من مظاهر الترابط والانسجام، " على أن مبدأ الترتيب ليس صارما إلى درجة استحالة تغيير الترتيب فى متتالية ما ، بل يحتمل أن يحدث التغيير ، ولكنه يكون مصحوبا بنتائج تجعل التأويل مختلفا من زاوية تداولية " [١٦] .

١ – <u>مخالفة الترتيب الزمنى :</u>

كما فى قول الله تعالى : **{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ }** [يس :١٢]

البنية السطحية : نحيى الموتى و نكتب ما قدموا (فى الدنيا)

بعد الموت قبل (ترتيب زمنى مخالف)

البنية العميقة : نكتب ما قدموا (فى الدنيا) و نحيى الموتى

قبل الموت بعد (ترتيب زمنى معتاد)

الخطاب رد على الكفرة منكرى البعث [١٧] ، وناسب ذلك ورود الخطاب فى صورة جملة اسمية مصدرة بـ " إنّ " التى تفيد التوكيد ، وإتباعها بـ (نا) الفاعلين الدال على العظمة ، ثم توكيده بالضمير المنفصل (نحن) ، وكل ذلك شكل فى الصياغة فضاء من القدرة المطلقة التى تناسب عملية الإحياء بعد الموت ، ليكون أبلغ رد على منكرى البعث . وجاء تقديم (الإحياء بعد الموت) على (الكتابة ، وإحصاء الأعمال فى الدنيا) خلافا للترتيب الزمنى المتعارف عليه ، للفت الانتباه إلى أهمية الدلالة التى يمثل (البعث) مركز الثقل فيها ، فلولا البعث والحساب ، لانعدم تأثير الكتابة وإحصاء الأعمال أصلا ، وإنما تكتب أعمال الناس فى الدنيا ، لكى يحاسبوا عليها بعد الموت ، " فالإحياء هو المعتبر ، والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الإحياء " [١٨] .

وقول الله تعالى : **{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ [٦٧] قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ [٦٨] قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ [٦٩] قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ [٧٠] قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا**

---

[١٥] العلوى : الطراز ، ٥٦/١ – ٥٨ .

[١٦] د / محمد خطابى : لسانيات النص ، بيروت والدار البيضاء ، المركز الثقافى العربى ، ط١ سنة ١٩٩١ ، ص ٣٨

[١٧] القرطبى : الجامع لحكام القرآن ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ط٣ سنة ١٩٨٧ ، ١١/١٥ .

[١٨] سليمان بن عمر (الجمل) : الفتوحات الإلهية ، ٥٠٥/٣ .

شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** (٧٢) **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }** [سورة البقرة :٦٧-٧٣]

تتوالى وقائع القصة المذكورة مخالفة للترتيب الزمنى المعهود فى تنسيق الأحداث وفق حدوثها فى العالم الخارجى ، وقد أشار الزمخشرى إلى أن مقتضى الظاهر يقتضى تقديم ذكر القتيل ، ثم يتبعه الأمر بذبح البقرة ، ويأتى فى النهاية الأمر بضرب القتيل ببعضها ، وذكر أن ترتيب البنية العميقة للقصة هو : " وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، فقلنا اذبحوا بقرة ، واضربوه ببعضها " (١٩)

وهذا الترتيب المخالف لمقتضى الظاهر أنتج قصتين على مستوى الصياغة الشكلية ، لا قصة واحدة ، وروعى فى هذا الترتيب تحقيق المبالغة فى تقريع بنى إسرائيل وتوبيخهم ، وهذا الغرض يندرج ضمن سياق عام يشكل فضاءً صياغيا لخطاب اليهود فى القرآن الكريم ، لأن " كل ما قص من قصص بنى إسرائيل ، إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها ، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان ، كل واحدة مستقلة بنوع من التقريع ، وإن كانتا متصلتين متحدتين ، فالأولى (الأمر بذبح البقرة) لتقريعهم على الاستهزاء ، وترك المسارعة إلى الامتثال ، وما يتبع ذلك .

والثانية (قصة القتيل) : للتقريع على قتل النفس المحرمة ، وما يتبعه من الآية العظيمة " (٢٠) ورأى الزمخشرى أن عنصر القصد من جانب " المرسل " هو الذى استدعى هذا الترتيب المخالف " لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض فى تثنية التقريع " (٢١) .

وللمتلقى حضور واضح على مستويين :

المستوى الأول : المتلقى الخاص

حيث تتجه الصياغة إلى متلق خاص مذكور فى القصة (بنى إسرائيل) لتحقيق الغرض العام وهو تثنية التقريع ، أى التنصيص على ذنبين اثنين :

الأول : المماطلة فى تنفيذ أمر الله تعالى بذبح البقرة .

الثانى : قتل النفس المحرمة .

وفى هذا المستوى من التلقى تبدو القصة كقصتين على مستوى البنية السطحية .

المستوى الثانى : المتلقى العام

حيث تتجه الصياغة إلى متلق مقامى عام (المسلمين ، أو كل من يستمع إلى القرآن) لإشعاره بالذنب العظيم الذى ارتكبه المعنىّ بالقصة ، وتحذيره من مغبة الوقوع فيه ، لأنه يؤدى إلى التعرض لغضب الله ولعنته . وفى هذا المستوى من التلقى تظهر ملامح الاتصال والاتحاد فى القصتين ، عن طريق الربط بينهما بضمير يعود إلى مذكور فى القصة الأولى (البقرة) (فقلنا اضربوه ببعضها) أى :

---

(١٩) الزمخشرى : الكشاف ، بيروت ، دار عالم المعرفة ، د . ت ، ٧٦/١ .

(٢٠) المرجع السابق : ٧٦/١ .

(٢١) نفسه : ٧٦/١ .

اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة . أى أن القصتين غير مستقلتين استقلالا تاما عن بعضهما شكليا ، وذلك باستمرار عنصر متقدم (فى قصة ذبح البقرة) فى القصة الثانية (قصة القتيل) [٢٢] .

٢ – مخالفة الترتيب المكانى :

فى هذا النوع من العدول تخالف الصياغة مقتضى الظاهر الذى شكلته دوالها الأولى فى عقل المتلقى ، حيث تؤسس الصياغة – فى البداية – مواقع ثابتة لعناصر الجملة ، تسير الحركة الذهنية للمتلقى وفقا لترتيبها ، ويتشكل – تبعا لذلك – أفق معين لتوقعات الترتيب فى الجمل المقبلة ، ولكن الصياغة تخترق أفق التوقعات الذى تشكل تبعا للترتيب السابق للعناصر ، وتنتج ترتيبا مكانيا مغايرا لعناصر الجملة السابقة ، يلفت انتباه المتلقى ، ويستوقفه للنظر فى دواعى تغيير الترتيب المكانى .

كما فى قول الله تعالى : { **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** } [البقرة : ١٤٣]

البنية السطحية : لتكونوا شهداءَ على الناس

تكون + اسمها + خبرها + متعلقات الخبر

ويكون الرسولُ عليكم شهيدا

يكون + اسمها + متعلقات الخبر + خبرها

البنية العميقة بحسب مقتضى الظاهر :

لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول شهيدا عليكم

تكون + اسمها + خبرها + متعلقات الخبر

تأخير صلة الشهادة (على الناس) فى ترتيب الجملة الأولى هدفه إثبات شهادة المسلمين على الأمم بأن الأنبياء بلغوهم رسالة الله ، وتقديم صلة الشهادة (عليكم) فى ترتيب الجملة الثانية هدفه اختصاص المسلمين بكون الرسول ﷺ شهيدا عليهم [٢٣] ، وشهادة الرسول ﷺ تمثل تشريفا للمسلمين لأنها تعنى تزكية لهم فى شهادتهم على الأمم السابقة ، وشهادة بعدالتهم . ولهذا خولف الترتيب السابق وجئ بدال الشهادة فى نهاية الجملة ليكون آخر شئ يعلق بذهن المتلقى . كما روعى فى تغيير الترتيب جانب إيقاعى " لأن (شهيدا) أشبه بالفواصل والمقاطع من (عليكم) ، فكان (شهيدا) تمام الجملة ومقطعها دون (عليكم) " [٢٤] .

ومما يدخل فى هذا النوع ، العدول عن الترتيب الأمثل عند تفسير معانٍ مجملة يريد المتكلم تفصيلها ، وصحة التفسير " أن يضع الشاعر معانى يريد أن يذكر أحوالها فى شعره الذى يصنعه ، فإذا

---

[٢٢] يراجع : د / محمد خطابى : لسانيات النص ، ص ١٨٤ ، بتصرف .

[٢٣] الزمخشرى : الكشاف ، ٩٩/١ ، والقزوينى : الإيضاح ، ٢٢٨/١ .

[٢٤] سليمان بن عمر (الجمل) : الفتوحات الإلهية ، ١١٥/١ .

ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ، ولا يزيد أو ينقص " [٢٥]

والأحسن فى هذا الأسلوب – كما قال ابن الأثير – ترتيب التفسير [٢٦] ، لأن الترتيب الأول يوجه الحركة الذهنية عند المتلقى توجيها محددا ، ويكوّن لديه أفقا معينا لتوقعات الترتيب فى العناصر التفسيرية اللاحقة ، فتسير المعانى المجملة الأولى والمعانى التفسيرية الثانية فى اتجاه واحد يتركز فيه انتباه المتلقى ، كما فى قول الله تعالى : **{ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }** [القصص :٧٣]

المعانى المجملة : الليل و النهار

المعانى التفسيرية : لتسكنوا فيه و لتبتغوا من فضله

وقول صالح بن جناح اللخمى : [من الطويل]

لَئِنْ كُنتُ مُحْتاجًا إلى الحِلْمِ إنَّنى إلى الجَهْلِ فى بَعْضِ الأحايِينِ أحْوجُ

وفسر ذلك بأن قال :

وَلِى فَرَسٌ لِلْحِلْمِ ، بالحِلْمِ مُلْجَمٌ وَلى فَرَسٌ للجهلِ ، بالجهلِ مُسْرَجُ

ثم فسر البيتِ الثانى أيضا ، فقال :

فَمَنْ رامَ تَقْويمى فإنّى مُقَوَّم وَمَنْ رامَ تَعْويجى فإنّى مُعَوَّجُ [٢٧]

أما إذا تغير الترتيب فى العناصر التفسيرية اللاحقة ، دون تحقيق غرض جمالى معين ، فإن بعض النقاد يعتبرونه أدنى رتبة فى البلاغة والحسن [٢٨] ، لأنه يكسر أفق التوقعات ، ويشتت الحركة الذهنية المنتظمة عند المتلقى .

ويرى الباحث أن رأى هؤلاء النقاد مرتبط بنظام التلقى الشفهى الذى سيطر على عملية توصيل الإبداع العربى لفترة طويلة ، حيث يمثل التوازى (الموسيقى ، والتركيبى ، والمعنوى) وسيلة مهمة لتيسير عملية التلقى والتأويل .

وعلى هذا فإن تغيير الترتيب فى المعانى التفسيرية أو التفصيلية يهدف إلى كسر آلية التلقى الشفهى ، واختراق سلبية المتلقى تجاه النص الأدبى ، لأن عملية التفصيل بعد الإجمال ، أو اللف والنشر موجهة أساسا إلى المتلقى . يقول السيوطى : " اللف والنشر : أن تذكر شيئين أو أشياء إما تفصيلا

---

[٢٥] قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، نشرة د/محمد عبد المنعم خفاجى، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية ،ط١ سنة ١٩٧٨، ص ١٤٢ .

[٢٦] ابن الأثير : المثل السائر ، ١٧٣/٣ .

[٢٧] قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ١٤٣ .

[٢٨] ابن الأثير : المثل السائر : ١٧٣/٣ .

بالنص على كل واحد ، أو إجمالا بأن تأتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم تذكر أشياء على عدد ما ذكرته ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، وتفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، لا أنك تنص عليه ...

والتفصيل ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يكون على ترتيب اللف (كالآية القرآنية السابقة)

الثانى : أن يكون على ترتيبه معكوسا

الثالث : أن يكون لا على ترتيبه لا طردا ولا عكسا ، ويسمى (المشوَّش) [٢٩]

تغيير الترتيب وتشويشه – إذاً – درجة متقدمة فى التفويض إلى عقل السامع – كما عبر السيوطى – ، وهو وسيلة لافتة لانتباه المتلقى ، لجأ إليها المبدعون لجذب المتلقى إلى رحاب النص ، وجعله مشاركا فى اكتمال بنيته الدلالية ، عن طريق إعادة الانتظام إلى البنية السطحية ، من خلال تشكيل البنية العميقة التى تعد هى الأصل المثالى للتوازى التركيبى والمعنوى .

كما فى قول الطرماح بن حكيم : [من الوافر]

أسَـــرْنَاهُمْ وأنْعَمْنَـــا عَلَيْهِـــمْ وأَسْـــقَيْنا دِمـــاءَهُمُ التّرابـــا

فمـــا صَـــبَروا لِبَـــأسٍ عِنْدَ حَـرْبٍ وَلا أدَّوْا لحُسْـــنِ يَـــدٍ ثَوابـــا [٣٠]

البنية السطحية :

المعانى الأول : الأسر والإنعام و الحرب والطعان

المعانى التفسيرية : (نفى) الصبر عند الحرب و شكر النعمة

البنية العميقة :

المعانى الأول : الأسر والإنعام و الحرب والطعان

المعانى التفسيرية : (نفى) شكر النعمة و الصبر عند الحرب

وقول الفرزدق : [من الطويل]

لَقَـدْ جئـتَ قومًـا لـوْ لَجَـأتَ إليهمُ طريـدَ دَمٍ أوْ حامـلاً ثقْـلَ مَغْـرَمِ

لأَلْفيـــتَ فِهِـمْ مُعْطِيـــا أو مُطاعِنًـــا وَرَاءَكَ شَـــزْرًا بالوَشـــيجِ المُقَـــوَّمِ [٣١]

البنية السطحية :

المعانى المجملة : طريدَ دم أو حاملا ثقل مغرم

---

[٢٩] السيوطى : شرح عقود الجمان فى علم المعانى والبيان ، القاهرة ، البابى الحلبى ، سنة ١٩٣٩ ، ص ١١٨ .

[٣٠] قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ١٤٢ .

[٣١] قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ١٤٢ ، وابن الأثير : المثل السائر ، ١٧٣/٣ ، الوشيج المقوم : الرمح .

المعانى التفسيرية : معطيا أو مطاعنا

البنية العميقة :

المعانى المجملة : طريدَ دم أو حاملا ثقل مغرم

المعانى التفسيرية : مطاعنا معطيا

وقول الشاعر [من الخفيف]

كيـف أسْـئُو وأنـتَ حِقْـفٌ وغُصْنٌ وغــزالٌ ، لَحْظًـا وقَــدًّا ورِدْفــا (٣٢)

البنية السطحية :

المعانى الأول : (أنت) حقف و غصن و غزال

المعانى التفسيرية : لحظا و قدا و رِدفا

البنية العميقة :

المعانى الأول : (أنت مثل) حقف و غصن و غزال

المعانى التفسيرية : ردفا و قدا و لحظا

فى هذه الشواهد يتشكل التوازى التركيبى والمعنوى من تفاعل المتلقى مع الصياغة الأدبية نفسها ، وليس مفروضا من خلال نمط متوارث من آليات التلقى الشفهى ، يحدد – سلفا – أنساقا محفوظة لترتيب مكونات النص . فالمتلقى يقف أمام التشويش المسيطر على عناصر البنية السطحية ، ويحاول من خلال استحضار البنية المثالية العميقة ترتيب العناصر ترتيبا منتظما ، لكى يتحقق التوازى التركيبى والمعنوى .

وفى الشاهد الشعرى الثالث أسهم تشابك تغيير الترتيب ، وحذف بعض عناصر التشبيه فى البنية السطحية للصياغة ، فى إدخال المتلقى بقوة إلى رحاب البنية الشعرية المتوترة ، ليكمل عناصر التشبيه المحذوفة ، ويعيد ترتيب العناصر (وجوه الشبه) ترتيبا منتظما ، لتتشكل فى ذهنه البنية العميقة المثالية التى يسيطر عليها الاكتمال والتوازى .

وقول الله تعالى : { **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٠٥) **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا**

(٣٢) السيوطى : شرح عقود الجمان ، ص ١١٨ ، الحقف : ما استطال واعوجّ من الرمل .

الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } [آل عمران : ١٠٥-١٠٧]

البنية السطحية : (بشارة) (نذارة)

المعانى الأول : يوم تبيض وجوه و تسود وجوه

(نذارة) (بشارة)

المعانى التفصيلية : فأما الذين اسودت وجوههم ... و أما الذين ابيضت وجوههم ...

البنية العميقة : (بشارة) (نذارة)

المعانى الأول : يوم تبيض وجوهو تسود وجوه

(بشارة) (نذارة)

المعانى التفصيلية : فأما الذين أبيضت وجوههم ... وأما الذين اسودت وجوههم ...

تراعى الصياغة حال المتلقى ، وحركته الذهنية ، وانفعالاته النفسية ، حيث صدّرت المعانى المجملة بالبشارة (يوم تبيض وجوه) لإشاعة التفاؤل فى نفس المتلقى ببلوغ هذه المنزلة ، والفوز بنعيمها المأمول ، وذلك بمثابة " براعة استهلال " حيث قدم الترغيب وأخر الترهيب (تسود وجوه) .

وفى المعانى التفصيلية بدئ بالنذارة (فأما الذين اسودت وجوههم ...) تجديدا للنهى والتحذير من التشبه بحال الكافرين ، لأن مصيرهم مظلم (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ...) ، فالنذارة استمرار لخط دلالى سابق يهدف إلى درء المفاسد ، والتحذير من الوقوع فيها . وجاء تأخير البشارة فى المعانى التفصيلية (وأما الذين ابيضت وجوههم ...) ليكون حسن الختام الذى تكتمل به الدائرة الدلالية ، حيث بدأت بذكر المؤمنين الفائزين ، وختمت بتفصيل حالهم ، وبيان النعيم الذى ينتظرهم ، وبذلك هيمنت دوال البشارة على بداية الصياغة ونهايتها ، ورجحت كفتها فى المقابلة التى تشكلت بينها وبين دوال النذارة [٣٣] . وعلى هذا تعدلت النظرة إلى انتهاك الترتيب المثالى فى ذكر المعانى التفصيلية ، وفطن بعض النقاد القدماء إلى أن ذلك وسيلة بلاغية بارعة لجذب انتباه المتلقى ، وضمان مشاركته الإيجابية فى عملية الاتصال الأدبى ، حيث قال السيوطى عند ذكر أنواع التفصيل بعد الإجمال فى اللف والنشر : "واختلف ، هل الأفضل المرتب أو غيره الشامل للمعكوس والمشوش ، فالشلوبين على الأول (أى تفضيل المرتب) وابن رشيق على الثانى (أى تفضيل المعكوس والمشوش) . قال الشيخ عز الدين بن جماعة : والحق عندى أن الأول أراد : لغة ، والآخر أراد بلاغة " [٣٤] .

فضل الشلوبين التفصيل المرتب بعد الإجمال ، محافظة على الترتيب المنطقى للمفردات ، تبعا للتصور الذهنى التتابعى الذى تشكله العناصر المجملة الأولى ، لكى تتحقق البنية اللغوية المثالية .

وتفضيل ابن رشيق للتفصيل المعكوس والمشوش يهدف إلى تحقيق الوظيفة الجمالية للنص الأدبى

---

[٣٣] ينظر : سليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ٣٠٢/١ .

[٣٤] السيوطى : شرح عقود الجمان ، ص ١١٨ .

بغض النظر عن موافقته للبنية اللغوية المثالية أو انحرافه عنها ، فالمهم هو تشكيل النص بما يتوافق مع السياق الذى يتحرك فيه ، وبما يزيد من ضغوطه على المتلقى عند استقباله ، وذلك هو الذى يرجح بلاغة النص ، ويفجر جمالياته .

٣ – مخالفة الترتيب التشريفى :

يكتسب الإنسان من البيئة المحيطة به ، ومن أنماط العلاقات الاجتماعية التى يتعايش بها مع غيره ، نسقا من المراتب التشريفية (التصاعدية أو التنازلية) ، تتدرج من خلاله مظاهر الوجود المختلفة ، والأشياء التى تحيط بالإنسان وتحتك به احتكاكا مباشرا أو غير مباشر . ويؤثر النسق التشريفى الذى يتكون فى الذهن على ترتيب التشكيل اللفظى للصياغة ، سواء من ناحية الإبداع ، أو من ناحية التلقى ، حيث يسير خط التنسيق اللفظى فى اتجاه خط التنسيق الشرفى ، حينما تتوافق الصياغة مع مقام مقتضى الظاهر .

التنسيق الشرفى

التنسيق اللفظى

(مقام مقتضى الظاهر)

بينما يسير خط التنسيق اللفظى فى عكس اتجاه خط التنسيق الشرفى ، حينما تهدف الصياغة إلى تشكيل سياقها الخاص المخالف لمقتضى الظاهر ، لتحقيق هدف تسعى إليه الصياغة بمخالفة النسق التشريفى .

التنسيق الشرفى

التنسيق اللفظى

(مخالفة مقتضى الظاهر)

كما فى قول الله تعالى : **{ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ** (٤٨) **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** (٤٩) **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }** [الشورى :٤٨–٥٠]

سورة الشورى سورة مكية ، نزلت قبل أن تنتشر القيم الإسلامية العادلة فى النفوس كلها ، فكان كثير من العرب (المتلقى الخاص) يعتقدون أن الإناث بلاء يجلب الفقر أو العار . وعلى هذا فالتنسيق اللفظى فى الآية الكريمة يخالف التنسيق الشرفى المستقر فى ذهن المتلقى ، حيث تم تقديم (الإناث) على (الذكور) .

التنسيق الشرفى : أولا : (الذكور) ، ثانيا : (الإناث) [بمراعاة حال المتلقى]

(١) (الذكور) (٢) (إناثا) [مقتضى الظاهر]

التنسيق اللفظى فى الآية : أولا : (الإناث) ، ثانيا : (الذكور) [بمراعاة السياق العام للصياغة]

(إناثا) (١) (الذكور) (٢) [خلاف مقتضى الظاهر]

وهنا تم العدول عن مقتضى الظاهر ، بتقديم (إناثا) على (الذكور) ، خلافا للترتيب الشرفى المألوف للمتلقى ، وذلك لأن الصياغة تهدف إلى تشكيل سياقها الخاص ، حيث ذكر البلاء فى نهاية الآية الأولى (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) ، و عقبه ذكر كفران الإنسان لنعم الله ، ونسيانه الرحمة السابقة عنده ، وأكد هذا المعنى عن طريق الجملة الاسمية التى تفيد الثبوت ، وتصديرها بـ (إنّ) التى تفيد التوكيد ، والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر (الإنسان) لدمغه بالجحود ، وتسجيله عليه ، ثم جاءت صيغة المبالغة (كفور) لتعمق هذا المعنى وتؤكده . ثم عقبه ذكر ملكية الله للكون كله بطريق الاختصاص ، بواسطة تقديم المسند (لله) ، بما يفيد الهيمنة المطلقة ، وتصريف أحوال الكون بالمشيئة الإلهية المسيطرة ، لا بمشيئة الإنسان . ولما كان إنجاب الإناث يخالف رضا الإنسان ومشيئته قدم فى الترتيب ليتوافق مع هذا السياق ، وليلى الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء (الإناث) ذكر البلاء الوارد فى نهاية الآية السابقة ، وأخر الذكور ، ليتم انسجام الخطاب بما يتوافق مع السياق العام الذى تتحرك فيه الصياغة ، ولذلك عوض تأخيرهم – وهم أحقاء بالتقديم بالنظر إلى حال المتلقى – بالتعريف الذى يفيد التنويه والتشهير ، لكى يتوازن تقديم (إناثا) مع تأخير (الذكور) . كما جاء تأخير (الذكور) لتوفير التناسب الإيقاعى بين الفواصل (نكير ، وكفور ، والذكور ، وقدير) " والمناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية ، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول " [٣٥] . والتناسب الإيقاعى يهدف أساسا إلى التأثير فى المتلقى ، وكأنه تعويض صياغى عن الخروج على مقتضى الظاهر .

ثم قدمت الصياغة الذكور على الإناث (ويزوجهم ذكرانا وإناثا) ، مخالفة الترتيب الأول ، لزيادة فاعلية السياق الداخلى ، وتعميق الشعور بسيرورة التشكيل اللغوى وفق واقع صياغى خاص ، بغض النظر عن مخالفته للواقع الفعلى الخارجى ، أو موافقته له ، والهدف هو السعى إلى انسجام الخطاب مع السياق الذى ترمى الصياغة إلى تشكيله ، وهو سيطرة المشيئة الإلهية على الكون كله ، وتضاؤل المشيئة الإنسانية أمام هيمنتها المطلقة . كما أن تقديم " الإناث " أولا ، ثم تقديم " الذكور " ثانيا يهدف إلى هدم الواقع الفعلى المسيطر على البيئة العربية آنذاك ، والمتأصل فى نفس المتلقى الخاص (العرب) بأفضلية نوع (الذكور) على نوع (الإناث) ، وإقامة واقع جديد فيه معايير جديدة للشرف والأفضلية ، لا فضل فيه لنوع على نوع ، ولا لجنس على جنس ، إلا بالتقوى والعمل الصالح [٣٦] .

وقول الله تعالى فى آيات تقسيم المواريث : **{ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ } { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ } { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ**

---

[٣٥] السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٢٩٦/٣ ، نقلا عن كتاب شمس الدين بن الصائغ : " إحكام الراى فى أحكام الآى " .

[٣٦] يراجع : الزمخشرى : الكشاف ، ٤٠٨/٣ ، وابن الأثير : المثل السائر ، ٢٢٦/٢ .

دَيْنٍ } [النساء : ١١ ، ١٢]

تقدمت (الوصية) على (الدَّيْن) أربع مرات فى آيتين متتاليتين ، مع أن الدَّيْن مقدم على الوصية – شرعا – بالإجماع ، وما يرتبط بالشرع يتقدم ويعلو دائما فى الموروث الإسلامى ، وبذلك خالف خط التنسيق اللفظى خط التنسيق الاستحقاقى (الشرفى)

التنسيق الاستحقاقى أولا : الدين ثانيا : الوصية [مقتضى ظاهر الشرع]

التنسيق اللفظى : أولا : (وصية) ثانيا : (دين) [خلاف مقتضى الظاهر]

خالفت الصياغة مقتضى الظاهر للفت انتباه المتلقى إلى أهمية الوصية ، وحثه على المسارعة بتنفيذها ، وتحذيره من التهاون بها ، وذلك لاجتماع عدة عوامل اجتماعية ونفسية تغرى بالتهاون فى إنفاذ الوصية ، وهى :

١ – الوصية مشبهة للميراث فى كونها مأخوذة من غير عوض ، لذلك فإن إخراجها مما يشق على الورثة ، ويتعاظمهم ، ولا تطيب أنفسهم بها ، فكان أداؤها مظنة التفريط بخلاف الدين ، فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه . ⟵

٢ – الطرف المستحق للوصية يكون – غالبا – ضعيفا ، غير قادر على الحصول على حقه عنوة واقتدارا ، ويكون فى شدة الحاجة إليها ، فالوصية حظ مساكين وضعفاء ، بينما الدَّين حظ غريم مستأسد قوى ، يطلب حقه بقوة وسلطان ، وله فيه حجة ومقال .

٣ – الوصية أقل لزوما من الدين ، لأنه إذا مات الموصى ، يجب سداد الديون أولا ، فإذا استغرقت الديون التركة كلها ، فليس للموصَى له شئ [٣٧] .

لهذا آثرت الصياغة مخالفة مقتضى الظاهر بتقديم الوصية على الدين أربع مرات متوالية ، حضًّا عليها ، وتحذيرا من التفريط فى أدائها إلى أصحابها ، ليقتلع اهتمام الصياغة القرآنية بالوصية عوامل الشح والأثرة من نفوس الورثة .

وقول الله تعالى : **{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }** [المائدة : ٦٩]

جاء عدول الصياغة عن مقتضى الظاهر على مستويين :

المستوى الأول : العدول عن التنسيق الشرفى

لأن التشريف يقتضى تقديم ذكر أهل الديانات السماوية أولا (المؤمنين ، واليهود والنصارى) ، ثم يؤخر ذكر (الصابئين) الكفرة الذين صبئوا (خرجوا) عن الأديان كلها .

التنسيق الشرفى : (١) الذين آمنوا (٢) الذين هادوا (٣) النصارى (٤) الصابئون
(مقتضى الظاهر)

التنسيق اللفظى : (١) الذين آمنوا (٢) الذين هادوا (٣) الصابئون (٤) النصارى
(خلاف مقتضى الظاهر)

---

[٣٧] يراجع : القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، ٧٣/٥ ، ٧٤ ، والزمخشرى : الكشاف : ٢٥٤/١ .

المستوى الثانى : كسر الإعراب (فى الظاهر) [*]

إنّ	الذين آمنوا	والذين هادوا	والصابئون	والنصارى
	النصب	النصب	الرفع	النصب

البنية العميقة :

إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون كذلك [٣٨]

كسر الإعراب – ظاهريا – حيث توسط (الصابئون) اسمين حكمهما النصب ، وهو مرفوع على الابتداء وخبره محذوف ، والنية به التأخير عما فى حيز (إن) من اسمها وخبرها . ففى البنية العميقة ، (الصابئون) مقطوع عن العطف الإفرادى ، وجملته (هو وخبره المحذوف) معطوفة على جملة (إن الذين آمنوا ...) ولا محل لهمامن الإعراب . وقد تآزر الخروج على التنسيق الشرفى مع الخروج على ظاهر الحكم الإعرابى فى لفت انتباه المتلقى إلى خصوصية دال (الصابئون) ، وأنه يمثل مركز الثقل الدلالى ، لأن الصابئين هم أوغل الطوائف المذكورة فى الضلال ، وأشدهم غيا وكفرا ، لأنهم خرجوا عن الأديان كلها ، فإذا كان هؤلاء الصابئون يُتاب عليهم ، إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فكيف بغيرهم من أهل الديانات السماوية [٣٩] .

وهكذا أسهم العدول عن مقتضى الظاهر فى تحقيق الغرض العام الذى تسعى الصياغة إلى تأكيده، وهو فتح باب التوبة على مصراعيه أمام الجميع ، وإشاعة التفاؤل والأمل فى نفوس التائبين .

القَلْـــــب

يعد القلب ذروة أشكال التقديم والتأخير ، لأنه لا يكتفى فيه بتغيير مواقع عناصر الجملة ، أو التبادل بينها ، بل يضاف إلى ذلك التداخل المعنوى بين مفردات التركيب المقلوب ، وبالتالى تغيير الحكم الإعرابى لكل مفردة ، لأن الإعراب فرع المعنى ، لهذا عدّ السيوطى القلب نوعا من المجاز اللغوى [٤٠] ، وكذلك عدّه (جون كوين Jean Cohen) نوعا من الاستعارة ، لأنه ينطوى على تغيير فى المعنى فقال : " القلب ينتمى إلى الصور غير الاستعارية بما أنه صورة نحوية تركيبية ، ولكن ما دام هو يغير المعنى فإنه يعد استعارة أيضا " [٤١] .

وذلك يعد نوعا من المبالغة التى تنطوى على إعجاب بالغ بالنماذج الجيدة من صور القلب ، لأن

---

[*] ستأتى دراسة مفصلة عن كسر الإعراب فى الباب الثالث ، فى مبحث " التوهيم " .

[٣٨] الزمخشرى : الكشاف ، ٣٥٤/١ .

[٣٩] يراجع : الزمخشرى : الكشاف ، ٣٥٤/١ ، وأحمد بن المنير : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (على هامش الكشاف) : ٣٥٤/١ .

[٤٠] السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، ١١٦/٣ .

[٤١] جون كوين : اللغة العليا ، ترجمة د / أحمد درويش ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط١ سنة ١٩٩٥ ، ص١٠٨.

صور القلب ليست إلا واحدة من أنماط الانحراف التركيبى المختلفة ، وهى تتصل بمجاوزة قاعدة ترتيب الكلمات فى الجملة [٤٢]

وتعتبره الدراسات البلاغية الحديثة من الصور الموجهة إلى الجمهور [٤٣] . لجذب انتباه المتلقى عن طريق القلب المعنوى الذى يُحدث تغييراً حادا فى ترتيب عناصر البنية السطحية ، ويتبعه اهتزاز فى شبكة العلاقات والمعانى المنظمة المستقرة فى الذهن ، وذلك يدفع المتلقى إلى محاولة إعادة الانتظام والاستقرار إلى البنية السطحية ، والى شبكة المعانى والعلاقات الذهنية عن طريق استحضار البنية العميقة المثالية ، وفى أثناء ذلك يتوصل المتلقى إلى الغرض الذى دفع المبدع لكى يعدل بالبنية السطحية عن مقتضى الظاهر .

ولذلك فإن أسلوب القلب له أثر مهم فى النص الأدبى ، إذا أحسن استخدامه ، ومن هنا فقد عده " جون كوين " ملمحا من ملامح الاستعمال الشعرى [٤٤] .

والقلب فى البلاغة العربية نوع من العدول عن مقتضى الظاهر [٤٥] ، وهو أنواع :

١ – قلب إسناد :

فيه يحدث تغيير فى الترتيب المكانى ، وفى المواقع الإعرابية لمفردات التركيب المقلوب ، وبالتالى يحدث قلب فى المعنى العام المستنبط من التركيب .

كما فى قول الله تعالى : **{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ.... }** [الأحقاف :٣٤،٢٠]

البنية السطحية :

ويومَ يُعْرَض الذين كفروا	على النار
نائب فاعل	اسم مجرور
المعروض (مسلوب الإرادة)	المعروض عليه (صاحب الاختيار)

البنية العميقة :

ويوم تُعْرَضُ النار	على الذين كفروا
نائب فاعل	اسم مجرور
المعروض (مسلوب الإرادة)	المعروض عليه (صاحب الاختيار)

الخروج على مقتضى الظاهر فى مستوى البنية السطحية يهدف إلى تحقيق غرضين مرتبطين

---

[٤٢] جون كوين : اللغة العليا ، ص ١١٣ ، وكتاب : بناء لغة الشعر ، ترجمة د / أحمد درويش ، ص ٢١٣ .

[٤٣] خوسيه ماريا إيفانكوس : نظرية اللغة الأدبية ، ترجمة د / حامد أبو أحمد ، ص ١٨٩ .

[٤٤] جون كوين : بناء لغة الشعر ، ترجمة د / أحمد درويش ، ص ٢٧ ، ٢١٣ .

[٤٥] يراجع : السكاكى :المفتاح، ص ١١٩، والقزوينى : الإيضاح ،١٦٣/١، والسيوطى : شرح عقود الجمان ، ص ٣٠، وشروح التلخيص ، ٤٨٨/١ .

بطرفى القلب :

أولا : المبالغة فى إهانة المعروض (الذين كفروا) لأن المعروض هو الذى لا اختيار له ، فصور الكفار بأنهم مسلوبو الإرادة ، مقهورون ، كالمتاع الذى يتصرف فيه من يُعرض عليه .

ثانيا : التهويل والترهيب ، بإدعاء أن النار (المعروض عليه) ذات اختيار وتمييز ، ولها قهر وغلبة تتحكم بهما فى الكفار ، وتتصرف فيهم تصرف الغالب المنتصر الذى يحكم فى ضحاياه بما يشاء ، وذلك لتخويف الكفار ، وبث الرعب فى قلوبهم [٤٦]

وقول الشاعر : [من الطويل]

تَـرى الثَّوْرَ فِيها مُدْخِلَ الظِّـلِّ رَأْسَـهُ وَسـائِرُهُ بـادٍ إلى الشـمْسِ أجْمَــعُ [٤٧]

البنية السطحية :

مدخلَ الظلِّ رأسَــه

مضاف إليه مفعول به

(الداخل) (مكان الدخول)

البنية العميقة :

مدخل رأسِــه الظـلَّ

مضاف إليه مفعول به

(الداخل) (مكان الدخول)

البيت وصف لهاجرة شديدة الحر ، ألجأت الثيران إلى كنسها ، فهى تحاول إدخال رؤوسها فى الظل لما تجده من شدة القيظ ، وأسهم القلب بخروجه على خلاف مقتضى الظاهر ، فى تصوير الحرارة الشديدة التى تصبها الشمس على الثور ، ومحاولته الملحة المضنية لوقاية رأسه من شدة القيظ ، وحمايته له بإدخاله فى منطقة الظل ، بل إنه يود إدخال الظل نفسه إلى رأسه ، ليبعد برده أذى الشمس المحرقة .

وجسّم القلب خوف الثور على أهم جزء فى جسمه ، وسعيه الملح لحمايته من كل أذى ، ووقايته بكل وسيلة ، حتى يبدو للعيان أن الظل التبس برأسه ، فصار كل واحد منهما داخلا فى صاحبه .

٢ – قلب عطف :

يتصل بالتغيير فى ترتيب المعطوفات

كقول الله تعالى : { **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى** [٨] **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** } [النجم :٨ ، ٩]

البنية السطحية : دنا فتدلى

---

[٤٦] يراجع : سليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ١٣١/٤ ، والسيوطى : شرح عقود الجمان ، ص ٣٠ .

[٤٧] سيبويه : الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ١٨١/١ ، وابن قتيبية : تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد صقر، ص ١٩٤ .

obeikandi.com

البنية العميقة (على تقدير القلب) : تدلى فدنا

لأنه بالتدلى – وهو الامتداد من أعلى إلى أسفل – مال إلى الدنو

وقوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام { **اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ** } [النمل : ٢٨]

البنية السطحية : ثم تولّ عنهم فانظر

البنية العميقة (على تقدير القلب) : فانظر ثم تولَّ عنهم [٤٨]

وقد صرف البلاغيون والمفسرون شواهد هذا النوع عن قصد القلب فيها ، ففسروا الشاهد الأول بأن أصله : ثم أراد الدنو (أى جبريل عليه السلام) من محمد ﷺ ، فتدلى ، فتعلق عليه فى الهواء .

وبأن معنى الشاهد الثانى : تنحَّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ، فانظر ماذا يرجعون [٤٩] .

٣ – قلب تشبيه : [٥٠]

وسوف ندرسه بالتفصيل فى الباب الثانى فى علم البيان .

وقد تعددت آراء البلاغيين فى القلب ، بين رده ، وقبوله .

* فقد قبله جماعة منهم بدون تحفظ ، على رأسهم " السكاكى " الذى عده من الأساليب التى تورث الكلام ملاحة ، وهو علامة على كمال البلاغة عند المبدع [٥١]

* ورده جماعة مطلقا ، منهم ابن قتيبة الذى رأى أن القلب نتيجة لغلط المبدع ، أو لضرورة الوزن أو القافية ، لذلك رأى وجوب تنزيه كتاب الله عنه ، وتأويل الآيات التى توهم القلب بما يبعدها عنه [٥٢] . وقدامة بن جعفر الذى عده من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا [٥٣]

وحازم القرطاجنى الذى اتفق رأيه مع رأى ابن قتيبة ، ورأى أن يوقف بموضع القلب . على السماع ، وألا يقاس عليه [٥٤]

* وتوسط آخرون فقبلوه بشرط أن يتضمن القلب اعتبارا بلاغيا لطيفا يبيح العدول عن مقتضى الظاهر ، فإن لم يتضمن نكتة بلاغية فلا يقبل ، لأنه يصير – حينئذ – عكس المراد ، وعدولا عن الظاهر بغير سبب بلاغى يعتد به [٥٥] .

---

[٤٨] السيوطى : الإتقان ، ١١٦/٣ ، والسكاكى : المفتاح ، ص ١١٩ .

[٤٩] القزوينى : الإيضاح ، ١٦٧/٣ .

[٥٠] يراجع فى أنواع القلب : السيوطى : الإتقان ، ١١٦/٣ ، والسكاكى : المفتاح ، ص ١١٩ ، والقزوينى : الإيضاح ، ١٦٤/٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

[٥١] السكاكى : المفتاح ، ص ١١٩ .

[٥٢] ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٠٠ .

[٥٣] قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ٢٠٩ .

[٥٤] حازم القرطاجنى : منهاج البلغاء ، تحقيق د / محمد الحبيب بن الخوجه ، ص ١٧٩ .

[٥٥] منهم : القزوينى : الإيضاح ، ١٦٣/١ ، ١٦٤ ، وابن يعقوب المغربى : مواهب الفتاح ، ٤٨٩/١ .

obeikandi.com

ومن النوع المردود الذى لا يتضمن نكتة بلاغية – فى رأيهم – ، قول القطامى (عمير بن شييم) فى وصف ناقته : [من الوافر]

فَلَمَّـا أنْ جَـــرَى سِـمَنٌ عَلَيْهـــا كمــاطيَّنْـتَ بالفَـــدَنِ السَّـــياعا

أَمَـــرْتُ بهـا الرِّجـالَ لِيَأْخُذوهـــا ونحــنُ نَظُـنُّ أنْ لــن تُسْــتَطاعا [٥٦]

البنية السطحية :

كما	طيّنتَ	بالفدن	السياعا
		اسم مجرور	مفعول به
		(الطلاء)	(المطِلىّ)

البنية العميقة :

كما	طيَّنتَ	الفَدَنَ	بالسياع
		مفعول به	اسم مجرور
		(المطلى)	(الطلاء)

الباحث يرى أن البلاغيين قد جانبهم التوفيق فى اعتبار هذا الشاهد من شواهد القلب المردودة ، لأن القلب قد أدى مهمته فى إطار البيت ، حيث كثف المبالغة فى وصف الناقة بالسمن والامتلاء ، وجسّمها حين شبه طبقة الشحم التى تغطى جسم الناقة بالقصر المطلى بطبقة سميكة من الطين .

المشبه		الأداة		المشبه به	
جرى سِمَن	عليها	كـ (ما)	طينت	بالفدن	السياعا
(١)	(٢)	↓		(٢)	(١)

طبقة الشحم جسم الناقة جسم القصر الطلاء (الطين)

جاء العدول عن مقتضى الظاهر بقلب أجزاء المشبه به للإيحاء بالمبالغة ، فجعل الأصل فرعا (الفدن) ، والفرع أصلا (السياعا) ، فصار الطلاء لسمكه وضخامته هو الجسم المطلى (وهو المناظر لطبقة الشحم فى الناقة) ، وصار القصر بمثابة طلاء رقيق ، وبذلك تتجه دلالة التشبيه نحو تثبيت الجزء الأول من المشبه وتعميق فاعليته ، بجعله مركز الثقل الدلالى ، الذى تصب فيه دلالة البيت الكلية ، وبذلك يتحقق الغرض البلاغى من الصياغة .

والرأى الثالث أقرب الآراء إلى الصواب ، مع وجوب التريث كثيرا أمام الشواهد المردودة بالاعتماد

---

[٥٦] القزوينى : الإيضاح ، ١٦٥/١ ، الفدن : القصر ، السياع : الطين المخلوط بالتبن .

obeikandl.com

على التأويل السطحى المباشر الذى يوحى بعبثية القلب ، وعدم جدواه ، لأن التغلغل فى مستوى البنية العميقة ، ووضع السياق العام الذى تتحرك فيه الصياغة فى الاعتبار ، والتأويل المتأنى لدلالة البنية الكلية ، ومدى إسهام القلب فى تحقيق الغرض العام للصياغة ، كل ذلك قد يعيد الاعتبار البلاغى إلى كثير من الشواهد المرفوضة ، ويكشف النقاب عن قيمتها الدلالية والجمالية .

obeikandl.com

الفصل الرابع
التبادل الدلالى والوظيفى
(التقارض)
بين الحروف والأدوات

١ ـ التقارض بين حروف الجر
٢ ـ التقارض بين حروف العطف
٣ ـ التبادل الدلالى بين أدوات الشرط
٤ ـ التبادل الدلالى بين أدوات القصر

obeikandl.com

التقارض بين حروف الجر

الحرف دال غير مستقل بنفسه فى الدلالة ، ولكنه موضوع للدلالة على معنى فى غيره . ومن الحروف ما هو مختص بالدخول على الاسم (حروف الجر) ، وما هو مختص بالدخول على الفعل (حروف الجزم) وما هو مشترك بينهما (حروف النفى : ما ، ولا) [١] .

وتقارض الحروف والأدوات نوع من التراسل الدلالى بين الدوال ، وهو يؤدى إلى تركيز الحركة الدلالية فى موضع محدد من البنية السطحية للصياغة ، وذلك يفجر طاقات دلالية كثيرة ، تساعد فى إبراز الوجوه الجمالية التى تقف وراء بناء الصياغة على خلاف مقتضى الظاهر .

ويندرج تقارض الحروف والأدوات تحت ما يسمى " بالحركة الموضعية للصياغة " حيث " يتم التحول الدلالى فى نقطة واحدة ، ليفرز ناتجا ثنائى التكوين ... فيزيح الحرف حرفا آخر ليحل محله ، ويؤدى وظيفته بالغياب ، ثم يؤدى وظيفته الأصلية بالحضور " [٢] .

وقد تنبه القدماء إلى التقارض الدلالى بين الحروف ، وسموه " التضمين " ، وأشاروا إلى أثره فى زيادة التكثيف الدلالى ، حيث قال ابن هشام : " قد يشربون لفظا معنى لفظ آخر فيعطونه حكمه ، ويسمى ذلك تضمينا ، وفائدته أن تؤدى كلمة مؤدى كلمتين " قال الزمخشرى : ألا ترى كيف رجع معنى : { **وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ** } [الكهف :٢٨] إلى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم ، ونحوه قوله تعالى :{ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ** } [النساء :٢] أى :ولا تضموها إليها آكلين" [٣]

وهذا الباب يدل بوضوح على المرونة الكبيرة فى استخدام حروف الجر فى اللغة العربية ، وهى مرونة تلقى بظلالها الجمالية على الجمل والتراكيب ، لذا فقد تقبل النحاة والبلاغيون هذا الباب بقبول حسن ، فأشار ابن جنى إلى شيوعه وكثرته فى التراث العربى ، وعدّه فصلا من العربية لطيفا حسنا يدعو إلى الأنس بها ، والفقاهة فيها [٤] .

---

[١] الزجاجى : الإيضاح فى علل النحو ، تحقيق د / مازن المبارك ، بيروت ، دار النفائس ، ط٦ سنة ١٩٩٦ ، ص٥٤، وابن هشام الأنصارى : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، دار الفكر ، ط٥ سنة ١٩٦٧ ، ٢٥/١ .

وقد أشارت دراسات النحو التحويلى إلى أن بعض الوحدات اللغوية قد تتركب من أكثر من فونيم ولكنها تبقى بلا معنى ، فيقول جون ليونز : " يمكن أن نقوم بعملية التحليل اللغوى على المستوى النحوى دون الإشارة إلى أن الوحدات التى يتألف منها هذا المستوى لها معنى أو لا . فهناك بعض الكلمات ليست بذات معنى ، مثل كلمة (To) فى جملة مثل الجملة الآتية : " I want to go home " وقال المترجم : " وهى تشبه حروف الجر فى اللغة العربية "

ينظر : جون ليونز : نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة وتعليق د / حلمى خليل ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، سنة ١٩٩٥ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

[٢] د / محمد عبد المطلب : تقابلات الحداثة فى شعر السبعينيات ، ص٣٤٣ .

[٣] ابن هشام : مغنى اللبيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٦٨٥/٢ ، والزمخشرى : الكشاف ، ٣٨٨/٢ ، وهذا تلخيص لتعريف ابن جنى فى الخصائص : ٣١٠/٢ .

[٤] ابن جنى : الخصائص ، تحقيق محمد على النجار ، ٣١٢/٢ .

obeikandl.com

وقد اختلف النحاة فى تخريجه ، وبيان طريق التوسع فيه .

فقد اعتبره الكوفيون تبادلا مطردا بين معانى حروف الجر ، وقالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض وضعا وقياسا .

بينما رفض البصريون ذلك ، وخرجوه على الاستعارة فى الحروف ، أو تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بالحروف المذكور ، أو على الشذوذ .

وقد أعجب مذهبُ الكوفيين أكثرَ النحاة المتأخرين ، وعدوه أقل تعسفا ، ومنهم ابن هشام الأنصارى الذى خصص جزءًا كبيرا من كتابه " مغنى اللبيب " للحديث عن معانى الحروف ، والتبادل فيما بينها [٥] . والمهم أن هذا الإجراء العدولى ، الذى يخرج الصياغة عن بنائها المألوف ، له تأثير جمالى كبير ، بالنظر إلى بنية الصياغة ، وإلى تأويلها من جانب المتلقى ، حيث " ينقل الناتج الشعرى من دائرة الوحدة إلى الكثرة ، من ثم يدخل منطقة الغموض الفنى المطلوب (على مستوى الدلالة) .

ويتيح – فى نفس الوقت – للمتلقى قدرا من تحمل المسئولية فى الوصول إلى هذا الناتج (على مستوى التأويل) " [٦] .

وقد تتبع النحاة – باستقصاء – معانى حروف الجر ، وذكروا شواهد كثيرة لمواضع التبادل الدلالى بينها [٧] ، وأشار البلاغيون والمفسرون إلى بعض الملامح البلاغية والجمالية التى يفرزها التقارض بين حروف الجر .

وسوف يشير الباحث – بإيجاز – إلى نماذج من هذا الباب الواسع الذى لقى ظلما فادحا فى أكثر الدراسات البلاغية المتأخرة ، وأبعد – بدون وجه حق – عن مجال الدراسة ، مع أنه يحتوى على أسرار ولطائف كثيرة نبه إليها السابقون .

من ذلك قول الله تعالى : { **إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا** [٥] **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** } [الإنسان :٥ ، ٦]

البنية السطحية :

عينا يشرب بها العين وسيلة الشرب

البنية العميقة :

عينا يشرب منها العين مصدر الشرب

---

[٥] ابن هشام : مغنى اللبيب ، ١٢٩/١ ، ١٣٠ ، ومجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ ، الجزء الأول ، ص ١٨٧ ، ١٩١ .

[٦] د / محمد عبد المطلب : تقابلات الحداثة فى شعر السبعينيات ، ص ٣٤٤ .

[٧] يراجع : ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ٢١/٣ – ٥٢ ، ومغنى اللبيب ، ١١٨/١، ٨٨ ، ١٦٣، ١٦٨، ١٩١، ومواضع كثيرة . والصبان : حاشية الصبان على شرح الأشمونى ، القاهرة ، المكتبة الأزهرية ، سنة ١٣٤٢ هـ ، ١٥٩/٢ –١٧٦ .

التبادل الدلالى بين (الباء) و (من) يسمح بانفتاح الصياغة على عدة دلالات وتأويلات :

"١ – حين يكون المفعول (العين) متوحدا بكلية الفعل ذاته ووسيلته ، تصبح المسافة بين الرغبة وموضوعها مسافة محذوفة .

٢ – الإيحاء بعدم الانتقاص من مصدر النهل ، وتؤكد ذلك الإيحاء مفارقة ذكية ، نستطيع أن نستشفها فى المقابلة بين المألوف وضده (يشربون من كأس / يشربون بالعين) وربما عضد فعل (يفجرونها) مقرونا بالمفعول المطلق (تفجيرا) دلالة اللامألوف ذاته (الديمومة أو اللاتناهى) .

٣ – كأن (العين) و (الكأس) صنوان ، يشرب الشاربون (منهما) أو (بهما) ، وفى هذه المبالغة فى وصف النعيم تأكيد للامحدودية مستويات العطاء أو المتعة ، فأنت تشرب بالكأس من العين ، وتشرب بالعين مما هو أكبر ، وأكثر تدفقا (العين كأس لشراب آخر) ، هنا تقوم " قوة تحرير الخيال " بتعديد سطوح الحلم إلى غير مدى ، وتجعل من ذلك الحلم أيضا حقيقة تقبل الوجود " [٨]

٤ – دخول الباء هنا لا يقصر الدلالة على معنى الشرب فقط ، بل يضيف إليه فضاءات دلالية أخرى تضفى على الشرب جوا من النشوة الروحية والحسية ، كدلالة الالتذاذ والمتعة حيث تصير البنية العميقة للصياغة : يشربون منها فيلتذون بها .

ودلالة الارتواء والشبع ، فتكون البنية العميقة : يرتوى بها عباد الله [٩]

وقول القحيف العقيلى : [من الوافر]

إذا رَضِـيتْ عَـلَىَّ بنـو قُشَـيرٍ لَعَمْـرُ اللـهِ أعْجَبَنـى رِضاهـا [١٠]

البنية السطحية : رَضِيت ← علىّ

البنية العميقة : رضيت ← عنى

استعمال (على) بمعنى (عن) فى هذا البيت يولد فى ذهن المتلقى عدة دلالات وتأويلات :

١ – تعميق دلالة الرضا والحب التى تهدف الصياغة إلى تأكيدها عن طريق تكرار دال الرضا فى شطرى البيت ، والاستعانة ببنية (رد الأعجاز على الصدور) التى وفرت للبيت إيقاعا نغميا ملحوظا ، ومكنت دال (الرضا) من التمركز فى موقع القافية التى تشكل مركز الثقل الدلالى والإيقاعى بالنسبة للمتلقى (رضيت ..... رضاها)

والخروج على مقتضى الظاهر باستخدام حرف الجر (على) ، يستدعى مفردات من الحقل الدلالى الذى يتواءم مع دال (رضيت) ، لإعادة الانتظام فى المستوى العميق للصياغة

---

[٨] د / وليد منير : النص القرآنى من الجملة إلى عالم ، القاهرة ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ط١ سنة ١٩٩٧ ، ص٤٨ ، ٤٩ .

[٩] يراجع : أحمد بن المنير : الانتصاف (على هامش الكشاف) ، ١٦٨/٤ ، وسليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ٤٥٤/٤ .

[١٠] ابن جنى : الخصائص ، ٣١٣/٢ ، وابن هشام : مغنى اللبيب ، ١٦٣/١ .

رضيت ←——————— (علىّ)

عطفت ←——————— علىّ

أقبلت ←——— علىّ

وبذلك يتم تكثيف المعنى العام للصياغة عن طريق التكرار فى مستوى البنية السطحية ، وعن طريق استدعاء ذهن المتلقى لدلالات أخرى ملائمة فى مستوى البنية العميقة .

٢ – تعدى الفعل (رضى) بحرف الجر (على) ، خروج على مقتضى الظاهر ، يقود الذهن إلى استحضار الدلالة المضادة ، والتحذير من عواقبها – على رأى الكسائى [١١] –

رضيت ←——————— (علىّ)

←———————

سخطت ←——————— علىّ

وتشكيل بنية المقابلة فى ذهن المتلقى بين البنية السطحية (رضيت / أعجبنى رضاها) وبين البنية المستدعاة بواسطة الخروج على مقتضى الظاهر (سخطت / أزعجنى سخطها) يحقق عنصر التأكيد للمعانى المذكورة ، ويرغب فيها .

وقول الله تعالى حكاية عن فرعون : **{ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى }** [طه : ٧١]

البنية السطحية : لأصلّبنكم ←——————فى (ظرفية)

البنية العميقة : لأصلّبنكم ←——————— على (استعلاء)

العدول عن مقتضى الظاهر بتعدية الفعل (أصلّب) بحرف الجر (فى) يوحى بدلالات كثيرة ، منها :

١ – تصاعد مؤشرات القهر والتنكيل من جانب فرعون ، وذلك على الرأى القائل بتضمين الفعل (أصلب) معنى (أجعل ، أو أضع ، أو أثبت)

لأصلّبنكم ←——————— (فى)

(لأجعلنكم ، أو لأثبتنكم ، أو لأضعنكم) فى

وتفضيل الفعل (أصلب) مع توكيده باللام ، ونون التوكيد الثقيلة ، وزيادة مبناه بتشديد اللام ، مؤشر قوى على تصاعد عمليات التعذيب ، وزيادة قسوتها (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل) لتحقيق درجة الشدة القصوى فى التعذيب الذى يريد فرعون إلحاقه بالسحرة المؤمنين وفى ذلك دليل آخر على طغيان فرعون ، لأن الطاغية الشرير يتصاعد فى درجات انتقامه

---

[١١] المرجع السابق : الصفحة نفسها .

دائما ، بعكس الرجل الحليم الذى قد يتنازل بدرجات انتقامه إلى درجة التسامح والعفو .

٢ – تفجر البنية السطحية غير المألوفة دلالة المجاز ، وذلك بإجراء الاستعارة التبعية فى معنى حرف الجر (فى) ، وتأويل الصياغة بأنها عمدت إلى تأكيد فظاعة الانتقام وشدة التعذيب ، وذلك بتشبيه تمكن المصلوب فى الجذع ، والتحامه به بتمكن المظروف فى الظرف ، وإحاطة الظرف (جذوع النخل) بالمظروف (المصلوب) من جميع النواحى ، لطرد أى أمل فى الإفلات أو النجاة [١٢] .

وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك : [من الطويل]

وَعِشْنا بِخَيْرٍ فى الحياةِ وقَبْلَنَا ⟵ أصابَ المنايا رَهْطَ كِسْرى وتُبَّعا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنا كأنِّى وَمَالِكاً لِطُولِ اجْتماعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا [١٣]

البنية السطحية :

لطولِ اجتماع ⟵ اللام تفيد التعليل (السببية)

البنية العميقة :

بعد طول اجتماع ، أو مع طولِ اجتماع

١ – موافقة معنى (اللام) لمعنى (بعد) أو (مع) تجسد عنف المفاجأة ، وشدة وطأة صدمة الموت على الذات المبدعة ، وقد عمقت الصياغة معنى المفاجأة ، بالتصريح بإصابة السابقين بسهام المنايا ، والسكوت عن إصابة مالك ، مع أنه مفهوم – ضمنا – من الصياغة ، وذلك لتوفير عنصر المفاجأة فى بداية البيت الثانى (فلما تفرقنا ...) . ودخول معنى المعية أو البعدية يكثف معنى الفناء والزوال ، فلا شئ يمنع من الوقوع فى براثن الموت ، ولا شئ يهم بعد وقوعه .

٢ – بروز معنى التعليل والسببية فى حرف (اللام) يوفر للصياغة دلالة عميقة تسمح بالجمع بين المتناقضات ، والتوفيق بينها ، حيث يصير الاجتماع الطويل سببا للفراق الأبدى .

بسبب طول اجتماع ⟵ لم نبت ليلة معا

الاجتماع سبب للفراق

فالمنايا بالمرصاد للذائذ الحياة وخيراتها ، والفراق ثمرة اللقاء ونهايته ، ولكل شئ إذا ما تم نقصان .

وهكذا يصبح البيت انعكاسا لهاجس الموت والفناء المسيطر على وجدان الشاعر القديم ، والذى ظل يؤرقه حتى فى أهنأ اللحظات ، وأكثرها حميمية . [من الطويل]

لَعَمرُك إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْياهُ باليَدِ

---

[١٢] سليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ١٠١/٣ ، ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ١٨٩/١ .

[١٣] المفضل الضبى : المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٧ سنة١٩٨٣، ص ٢٦٧ ، وابن هشام : مغنى اللبيب ، ٢٣٨/١ .

obeikandl.com

وقول الله تعالى : { **وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** [٧٦] **وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** } [الأنبياء:٧٦، ٧٧]

البنية السطحية :

ونصرناه ←——— (من) القوم

البنية العميقة :

ونصرناه ←——— (على) القوم

التبادل الدلالى بين حرفى الجر (من و على) ربما يقصد إلى الكشف عن عدة دلالات :

"١ – دلالة الثأر : تقول انتصرت لفلان من فلان ، أى أخذت بثأر فلان من فلان . وقد كان الطوفان الذى اكتسح فى طريقه كل شئ نوعا أليما من الثأر . ثأر شامل أحاق بالحيوان والإنسان والجماد ، ليعلن عن الحجم الهائل للغضب ، ويرهص بضرورة بناء عالم جديد تماما على أنقاض العالم القديم .

٢ – دلالة التخليص : فكأن الله تعالى يقول : وخلصناه من قوم السوء . (أى تضمين (نصرناه) معنى (خلصناه) فى البنية العميقة) وعد ذلك التخليص نصرا لنوح (عليه السلام) ، وذلك ما يدل عليه وجه التقابل بين (فنجيناه وأهله) وبين (فأغرقناهم أجمعين) " [١٤]

٣ – دلالة العصمة والمنعة والحفظ : وذلك بتضمين (نصرناه) معنى (منعناه أو عصمناه) [١٥]

ونصرناه ←——— (من) القوم

ومنعناه (وعصمناه) ←——— من القوم

وتظهر النية الجمالية حينما يتم كسر أفق التوقعات بالمخالفة بين حروف الجر فى مستوى البنية السطحية ، لتنتج الصياغة مستويين دلاليين متغايرين ، مع أنهما يجمعهما – ظاهريا – سياق واحد .

كما فى قول الله تعالى : { **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } [التوبة :٦٠]

المستوى الدلالى الأول : التملك (الاستحقاق)

للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ↑ اللام

المستوى الدلالى الثانى : الظرفية (الاستحقاق الأشد)

وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فى

السياق العام : بيان مصارف الزكاة ، وتحديد المستحقين لها .

---

[١٤] د / وليد منير : النص القرآنى ، ص ٤٨ .

[١٥] سليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ١٣٧/٣ .

دخلت (اللام) التى تفيد التملك على الأصناف الأربعة الأوائل ، (الفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم) لأنهم ملاّك لما عساه يدفع إليهم من الصدقات ، وإنما يأخذونه ملكا ، وينتفعون به مباشرة .

ثم عدل عن (اللام) إلى (فى) التى تفيد الظرفية ، لتنبيه المتلقى تنبيها صياغيا محسوسا إلى أن الأصناف الأربعة الأواخر (الرقاب ، والغارمين ، و سبيل الله ، وابن السبيل) أشد استحقاقا للتصدق عليهم ، وهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجعلوا مصبّا لها ، لأنهم يجمعون بين مشقة الخلو من المال ، ومشقات أخرى .

الرقاب ← الفقر + الرق (أو الأسر)

الغارمون ← الفقر + الدَّين

سبيل الله (الغزاة والحجاج) ← الفقر + الغربة + مشقة العبادة (الجهاد أو الحج)

ابن السبيل ← الفقر + الغربة (عن الأهل والمال)

كما أنهم لا يتملكون ما يدفع إليهم من الصدقات ، ولا ينتفعون به نفعا خالصا ، وإنما يذهب إلى غيرهم ، فنصيب (الرقاب) يذهب إلى السادة المكاتبين ، أو البائعين ، فكاً للرقاب ، ونصيب (الغارمين) يذهب إلى أصحاب ديونهم ، أداءً لديونهم ، والنصيب الذى يذهب فى سبيل الله يوجه لتجهيز الجيوش ، وتوفير المعدات والمؤن ، وتقوية على أداء مناسك الحج ، ونصيب ابن السبيل ينفقه فى التغلب على عقبات الطريق ، ليعود إلى أهله وماله .

فهم ليسوا ملاكا لما يصرف إليهم ، وإنما هم محالّ لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به .

وجاء تكرار (فى) مع (سبيل الله وابن السبيل) تأكيدا لخصوصيتهما ، وزيادة فى ترجيحهما على بقية الأصناف فى استحقاق أخذ الصدقات [١٦] .

وقول الله تعالى : { **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [سبأ : ٢٤]

المستوى الدلالى الأول :	الاستعلاء	الهداية
	على	هدى
المستوى الدلالى الثانى :	الانخفاض والانغماس	الضلال
	فى	ضلال

السياق العام : الحديث عن فريقين ، وموقفين متضادين .

دخل حرف الجر (على) الذى يفيد الاستعلاء ، ليضفى السمو والعلو على دال الهداية ، ويصور

---

[١٦] الزمخشرى : الكشاف ، ١٥٨/٢ ، ١٥٩ ، وأحمد بن المنير : الانتصاف ، ١٥٨/٢ ، ١٥٩ .

الراحة وهدوء البال الذى يتمتع بهما المهتدى صاحب الحق ، كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث شاء ، أو صاعد على منار ينظر إلى الأشياء ، ويتبينها فى يسر وسهولة .

ثم عدل عنه إلى حرف الجر (فى) الذى يفيد الظرفية ، ليصور الحيرة والذلة اللتين يتخبط فيهما الضال ، فكأنه منغمس فى ظلام دامس ، مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه ، أو محبوس فى مكان كئيب لا يستطيع الخروج منه [١٧] .

وقد أسهمت إيحاءات حرفى الجر (على ، وفى) فى تشكيل بنية المقابلة التى تهدف الصياغة إلى تأكيدها ، لتمييز كل فريق عن الآخر (مؤمنون / كافرون) (إنا / إياكم) (مهتدون / ضالون) (سمو ورفعة / انخفاض وضعة) . ومن خلال بنية المقابلة يستطيع المتلقى أن ينفذ من خلال هذا الخطاب المنصف المحايد ، إلى الدلالة التعريضية الكامنة خلف بنيته السطحية ، وهى تحديد من هو الفريق المهتدى ، ومن هو الفريق الضال ؟ فليس سواء من يوحد الله المنعم ، ويشكره على رزقه ونعمه الكثيرة ، ومن يشرك به ، ويجحد نعمه التى لا تحصى .

(الفريق الأول) : موحِّد ، مهتدٍ ، سامٍ

(الفريق الثانى) : مشرك ، ضال ، وضيع

[١٧] الزمخشرى : الكشاف ، ٢٥٩/٣ ، وسليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ٤٧٣/٣ .

openkandil.com

التقارض بين حروف العطف

تستعمل حروف العطف فى ربط أجزاء الكلام ، وتنسيقها ، والربط اللفظى عن طريق حروف العطف " يصور – عادة – التسلسل المنطقى بين الأحداث والقضايا ، ويستخدم فى الكلام الذى يلعب فيه الزمن دورا كبيرا " [١٨]

ولكل حرف من حروف العطف معنى أصلى رصده النحاة ، فـ (الواو) لمطلق الجمع ، و (الفاء) للترتيب والتعقيب ، و (ثم) للترتيب والتراخى ، و (أو) للتخيير (امتناع الجمع بين المتعاطفين) أو للإباحة (جواز الجمع بين المتعاطفين إذا دل السياق عليه)، أو للشك ، أو للإبهام ، أو للتقسيم ...[١٩]

" وقد نبه الإمام عبد القاهر الجرجانى إلى أن " الفاء ، والواو ، وثم ، وأو " وما شاكلها من حروف العطف ، تشترك فى أنها تفيد الشركة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ووراء ذلك فروق تحددها معانى كل حرف ، والبصير بما يريد أن يقول ، وبأداته اللغوية التى يقول بها ، هو الذى يلاحظ هذه الفروق ، فينزل كل واحدة فى منزلها الأشبه بها ، فيفيد معناه ، وحسه ، إفادة وافية ودقيقة ، وهذا هو رأس الأمر فى البلاغة ، وهذا هو توخى معانى النحو على حسب الأغراض التى تؤم ، لأن مراجعة المعانى فى النفس ، وتبيان ما بينها من فوارق وإن دقت ، وتحديد هذه الفوارق فى العبارة ، كل هذا يمثل فطنة الأديب ، وصفاء حسه ، وخبرته الناضجة بنفسه وفنه " [٢٠]

وإذا كان رأس الأمر فى البلاغة وضع كل حرف من حروف العطف فى مكانه المناسب من الصياغة حينما يقتضى المقام ذلك ، فإن العدول عن مقتضى الظاهر بتحويل حرف العطف عن معناه الأصلى ، أو تحميله معنى إضافيا إلى جانب معناه الأصلى ، يخرج الصياغة من دائرة الدلالة الأحادية ، ويضيف إليها دلالات متعددة ، ويسمح بتوسيع دائرة التواصل مع النص ، عن طريق التأويلات المتعددة التى يسمح فضاء الصياغة بإنتاجها .

كما فى قول الله تعالى : { **فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ** [٣٣] **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ** [٣٤] **وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ** [٣٥] **وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** [٣٦] **لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** } [عبس : ٣٣ – ٣٧]

البنية السطحية : يوم يفر المرء من أخيه ← وأمه وأبيه ← وصاحبته وبنيه

بل من صاحبته وبنيه ↑

البنية العميقة : بل من أمه وأبيه انتقال تصاعدى فى درجة الحب والقرابة ↑

يوم يفر المر من أخيه

---

[١٨] د / محمد الهادى الطرابلسى : خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص ٥٠٨ .

[١٩] يراجع : ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك ، ٣٥٦/٣ – ٣٨٨ .

[٢٠] د / محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط٢ سنة ١٩٨٧ ، ص ٣٤٧ .

تمثل الآية الأولى افتتاحية الحديث عن أحوال القيامة وأهوالها ، وهى افتتاحية لافتة للإنتباه على عدة مستويات :

أولا : المستوى الصوتى : حيث انتشر المد فى كلمات الآية الكريمة ، وتدرج من المد الطبيعى فى (إذا) ، إلى مد بمقدار حركتين إلى أربعة ، فى (جاءت) ، إلى أن يبلغ المد ذروته فى كلمة (الصاخّة) ليصل إلى ست حركات (مد كلمى مُثَقَّل)

وانتشار المد فى الجملة يعطى للصوت فرصة واسعة للاستمرار والامتداد دون عائق يمنعه ، وذلك يوفر للذهن فرصة للتفكير والتدبر فى مدلول الكلمات ، وفى الدلالة الكلية للجملة . ثانيا : المستوى الإيقاعى : حيث اختلفت نهاية فاصلة الآية عن الفواصل السابقة واللاحقة وهذا يلفت انتباه المتلقى للتدبر فى أسباب كسر الإيقاع النغمى فيها .

ثالثا : المستوى الدلالى : حيث تنطوى كلمة (الصاخة) على دلالة المفارقة ، فهى الداهية التى تصخ لها الخلائق أى يستمعون إليها ، وهى تصخ الآذان لشدة وقعها أى تصمها .

" قال ابن العربى : الصاخة التى تورث الصمم ، وإنها لمسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة " [٢١]

وهذه الدلالة المفارقة ستظلل المشهد الذى تكونه الآيات الأربع التالية .

رابعا : المستوى التركيبى : حيث حذف جواب (إذا) لكى يتم إدخال المتلقى طرفا فى تأويل الصياغة ، وحثه على التوصل إلى الجواب المحذوف من خلال التدبر فى الآيات التالية كلها .

وتشكل الآيات الأربعة التالية مشهدا مستقلا من مشاهد يوم القيامة ، عن طريق وحدة الإيقاع النغمى ، وتواطؤ الفواصل على حرف واحد (أخيه ، أبيه ، بنيه ، يغنيه) .

وعمدت الصياغة إلى العطف بحرف (الواو) لتكثيف الجو النغمى المتصاعد عن طريق الجمل القصيرة المتلاحقة ، وتكرار " الواو " يؤدى إلى سيطرة الصياغة تماما على ذهن المتلقى ، عن طريق نقش المشهد بتفاصيله الدقيقة فى ذاكرته ، لأن " تكرار حروف العطف يخضع – كما يقول علماء الأسلوب – لسيطرة النسق الشفاهى فى النظم الذى يضمن طول احتضان الذاكرة للنص ، وسهولة استرجاعه " [٢٢]

وأشرب حرف (الواو) معنى (بل) التى تفيد الانتقال [٢٣] ، كأنه قيل :

" يفر من أخيه ، بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه ، وقيل يفر منهم حذرا من مطالبتهم

---

[٢١] سليمان بن عمر (الجمل) : الفتوحات الإلهية ، ٤ /٤٩١ .

[٢٢] د / صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

[٢٣] قال ابن هشام : " بل : حرف إضراب ، فإن تلاها جملة ، كان معنى الإضراب إما الإبطال ... وإما الانتقال من غرض إلى غرض " مغنى اللبيب : ١/١٣٠ .

obeikandl.com

بالتبعات " [٢٤] .

ومعنى (بل) فى البنية العميقة للآيات يفيد الانتقال التصاعدى من الأدنى فى درجات الحب والقرابة إلى الأعلى ، وتهدف الصياغة من خلال هذا الانتقال التصاعدى للمشاعر ، وتتابع الجمل السجعية القصيرة ، وكثافة النغم الإيقاعى ، إلى تنمية درامية أحداث المشهد ، وتصعيد انفعالات المتلقى بهذه الأحداث ، وتكثيفها .

وتأتى الآية الأخيرة (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) لتقدم تبريرا للمفارقة التى تسيطر على المشهد (فرار الإنسان من أقرب الناس إليه) ، وتغلق الدائرة الدلالية المفتوحة منذ بداية المشهد (فإذا جاءت الصاخة) ، لأنها تمكن المتلقى من التوصل إلى جواب الشرط المحذوف

فإذا جاءت الصاخة ← اشتغل كل واحد بنفسه [٢٥]

فعل الشرط ← جواب الشرط المقدر

وقول أحمد شوقى حثا للسلطان العثمانى على البطش بالعابثين بأمن الحجاج : [من البسيط]

رَبَّ الجَزِيـرةِ أدْرِكْهـا فَقَـدْ عَبثـتْ بهـا الذِّئـابُ وضَـلَّ الراعـىَ الغَنَـمُ

لا تجْزِهِمْ عَنْكَ حِلْمـا واجْزِهِـم عَنَتًـا فـى الحِلْـم مِا يَسِـمُ الأفْعالَ أو يَصِـمُ

وقوله فى الحث على رعاية اليتامى وأبناء السبيل : [من الرمل]

لا تكُونـوا السَّـيْل جَهْمـا خَشِـنا ← كُلَّمـا عَـبَّ ، وكُونـوا السَّلْسَـبيلْ

رُبَّ عَيْـنٍ سَـمْحةٍ خاشِـعَةٍ ← رَوَّتِ العُشْبَ ولـم تنـسَ النخـيلْ [٢٦]

البنية السطحية :

لا تجزهم حلما و اجزهم عنتا

لا تكونوا السيل ← و ← كونوا السلسبيل

نهى (طلب كف عن فعل) مطلق الجمع أمر (طلب فعل)

حركة أفقية تجاورية ←

البنية العميقة :

اجزهم عنتا	كونوا السلسبيل	
↑ بل	↑ بل	↑ حركة انتقالية تصاعدية
لا تجزهم حلما	لا تكونوا السيل	

إشراب (الواو) التى تفيد مطلق الجمع ، معنى (بل) التى تفيد الانتقال ، يشكل حركة موضعية

---

[٢٤] الزمخشرى : الكشاف ، ١٨٧/٤ .

[٢٥] سليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ٤٩١/٤ .

[٢٦] الشوقيات ، ٢١٤/١، ٥٣/٤ بالترتيب، و د/ محمد الهادى الطرابلسى:خصائص الأسلوب فى الشوقيات،ص ٥٠٦ .

obeikandl.com

، تنقل الاتجاه الدلالى للصياغة من الحركة الأفقية التجاورية إلى الحركة الرأسية ، عن طريق الانتقال التصاعدى للأحداث .

وبدء الصياغة بأسلوب النهى (لا تجزهم ، ولا تكونوا) ينتح واقعا صياغيا لا يفترض فيه وجود واقع فعلى يوافقه (حلم السلطان أو تهاونه ، وقسوة الناس على أبناء السبيل) ، ولكن الصياغة تهدف إلى هدم هذا الواقع الفعلى إن وجد ، عن طريق تسليط النهى عليه ، ووضعه فى أسفل السلم التصاعدى للأحداث ، والانتقال من هذا الواقع المهدوم – أو الذى يجب هدمه – انتقالا تصاعديا إلى واقع إيجابى جديد يمثله فعل الأمر (اجزهم عنتا ، وكونوا السلسبيل) .

والدلالة المتولدة عن الأفعال الطلبية (النهى والأمر) تتجه هى الأخرى اتجاها رأسيا من الأدنى إلى الأعلى بحكم المسافة الفاصلة بين المرسل (الذى يمثل الذات الجمعية) والمستقبل الخاص (السلطان) (حاكم / محكوم) لتنتج دلالة الدعاء ، وطلب الغوث والنجدة . ومن الأعلى (اعتباريا) إلى الأدنى (بحكم الواقع الفعلى المهدوم) – فى الشاهد الثانى – لتنتج دلالة النصح والإرشاد .

وتفيد (ثم) الترتيب والتراخى الزمانى والمكانى ، وتعكس التنسيق المنطقى المألوف للأشياء والأحداث حسب ترتيبها ووقوعها فى عالم الخارجى ، أو بالنظر إلى الخبرة الشخصية المكتسبة . وقد يعدل بـ (ثم) عن معناها الأصلى ، فتستعمل " فى تراخى بعض الرتب عن بعض بالتباعد المعنوى ، تشبيها للتراخى المعنوى بالتراخى الزمانى والمكانى " [٢٧] .

وقد نبه " أحمد بن المنير " إلى أن (ثم) تنقل – فى مواضع كثيرة – من التراخى الزمانى إلى التراخى المعنوى فى المراتب ، وإن أعطت عكس الترتيب الوجودى [٢٨] ، أى أن عدول (ثم) عن مقتضى ظاهر معناها ، يعمل على خلخلة الترتيب الوجودى والمنطقى المألوف ، بغرض إبراز قصد جمالى ينبثق من الصياغة غير المألوفة ، ولفت انتباه المتلقى إلى شئ مهم يجب الانتباه إليه .

كما فى قول الله تعالى : **{ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ [١١] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ [١٢] فَكُّ رَقَبَةٍ [١٣] أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ [١٤] يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ [١٥] أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ [١٦] ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }** [البلد : ١١-١٧]

البنية السطحية :

فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة	ثم كان من الذين آمنوا ...
عمل	ثم إيمان

البنية العميقة :

---

[٢٧] العز بن عبد السلام : مجاز القرآن ، تحقيق د / محمد مصطفى بن الحاج ، ليبيا ، طرابلس ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، سنة ١٩٩٢ ، ص ١٦٢ .

[٢٨] أحمد بن المنير : الانتصاف ، ٣٥٦/١ ، ١٢٨/٤ .

إيمان ← ثم عمل

تقدمت الأعمال الصالحة على الإيمان خلافا للنسق الترتيبى المعروف ، الذى يتقدم فيه الإيمان دائما على العمل { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } ، " قل آمنت بالله ، ثم استقم " ،لأن الآيات تتحرك فى سياق الحديث عن نعم الله على الإنسان { **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ** (٨) **وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ** (٩) **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** } [البلد : ٧ –١٠] ، وجحود الإنسان لتلك النعم { **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ** } مع أن الواجب أن يؤدى شكرها عملا لا قولا ، بتحرير الأرقاء ، وإطعام اليتامى والمساكين ، فذلك هو اقتحام العقبة ، ومعاندة هوى النفس ، وقهر رغبتها فى الحيازة والتملك . وعطف الإيمان على العمل بـ (ثم) التى تفيد التراخى ، وعدل بمعناها عن التراخى الزمانى ، إلى التراخى والتباعد فى الرتبة والأفضلية ، اعتمادا على إدراك المتلقى أفضلية الإيمان وتقدمه على العمل ، لأن الإيمان شرط فى قبول العمل ، ولا يجوز أن يتقدم المشروط على شرطه [٢٩]

فتأخير ترتيب الإيمان فى البنية السطحية يستدعى تقديمه فى البنية العميقة وفى ذهن المتلقى باستحضار الترتيب العقائدى المتواتر فى القرآن والسنة (إيمان ثم عمل) ، وبذلك يصبح الإيمان هو الأساس الأول الذى يبنى عليه العمل الصالح ، والأمل النهائى فى أن يحظى بالقبول عند الله .

وتقديم العمل فى البنية السطحية يلفت انتباه المتلقى إلى وجوب مجاهدة النفس بالطاعات ، والمسارعة بأداء الأعمال الصالحة ، التى تمثل شكرا عمليا لنعم الله .

وقد تتحول (ثم) عن معناها الأصلى ، لتنتج دلالة التعجب ، والاستبعاد ، والاستنكار [٣٠] ، فتكون دلالة " التراخى " وسيلة تساعد المتلقى فى توليد دلالات متعددة للصياغة ، وبذلك يصبح العدول عن مقتضى الظاهر ملمحا أسلوبيا مهما ، يجذب المتلقى إلى رحاب النص ، ويجعله حاضرا فى عملية الاتصال عن طريق التأويل ، والتدبر فى الصياغة ، وفضائها الدلالى .

كما فى قول الله تعالى : { **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** } [الأنعام : ١]

يعطى المعنى الأصلى لـ (ثم) فرصة كبيرة لذهن المتلقى كى يستجلى قدرة الله الماثلة فى خلق السموات والأرض ، ويتدبر فى آياته ونعمه الكثيرة على الإنسان ، ليصل إلى وجوب توحيد الله وعبادته ، شكرا وعرفانا بنعمه السابغة . وبذلك عندما تنتقل الصياغة نقلة مضادة للبديهية السابقة التى توصل إليها ذهن المتلقى ، يتعمق شعور التعجب من سلوك الكفار المنافى للفطرة ، حيث إنهم بدلا من توحيد الله وشكره ، يشركون به ، ويجحدون نعمه ، وعمدت الصياغة إلى تكثيف شعور التعجب فى ذهن المتلقى عن طريق العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر .

(البنية السطحية) الحمد لله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون

---

[٢٩] العز بن عبد السلام : مجاز القرآن ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

[٣٠] أحمد بن فارس : الصاحبى ، تحقيق السيد صقر ، القاهرة ، مطبعة البابى الحلبى ، سنة ١٩٧٧ ، ص ٢١٥ .

(اسم ظاهر ←———— اسم ظاهر)

(البنية العميقة) الحمد لله ←———— ثم الذين كفروا به يعدلون

(اسم ظاهر ←———— ضمير)

وإيثار الاسم الظاهر (رب) بدلا من الضمير ، ومن لفظ الجلالة (الله) ، يكثف شعور التعجب من جانب المتلقى ، إذ إن الكفار يشركون بـ (ربهم) المنعم عليهم ، المتولى تربيتهم ، ونتيجة لذلك يتزايد عند المتلقى الإحساس باستبعاد هذا السلوك الجاحد واستنكاره [٣١] .

ومثله قوله تعالى { **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** [١١] **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا** [١٢] **وَبَنِينَ شُهُودًا** [١٣] **وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا** [١٤] **ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ** [١٥] **كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا** } [المدثر : ١١-١٦]

نزلت الآيات الكريمة فى " الوليد بن المغيرة " حينما عاند آيات الله ، وحارب الرسول ﷺ ، واتهمه بالسحر ، وادعاء الوحى .

تكرار العطف بالواو يؤكد كثرة النعم الممنوحة لهذا الرجل ، وتراكمها عنده ، وتنوعها بين مال كثير ، وبنين مقيمين حوله ، وجاه عريض ، وجاءت (ثم) لتعطى المتلقى فرصة لاستعراض تلك النعم السابغة ، ومعرفة كيفية شكرها . ومن هنا يتولد عند المتلقى شعور الاستبعاد والاستنكار تجاه سلوك هذا الرجل الجاحد ، حين يقابل النعم الممنوحة له بالطمع ، والجحود ، ومحاولة الصد عن سبيل الله ، بدلا من الرضا والشكر .

التبادل الدلالى بين أدوات الشرط

" تتقارض أدوات الشرط العمل مع بعضها البعض ، ومع غيرها من الأدوات غير الشرطية . هذا التقارض فى العمل يتبعه بالضرورة تقارض فى المعنى ، يمثل هو الآخر نوعا من الحركة الموضعية " [٣٢] . وهذه الحركة الموضعية تنتج ثراء دلاليا فى الصياغة ، ويبرز فضاء الصياغة تأويلات متعددة ، نتيجة لعدول أدوات الشرط عن معانيها الأصلية ، أو تحملها لمعان أخرى بجوار معانيها الأصلية بالنظر فى التركيب الكلى للصياغة ، والسياق العام الذى تتحرك فيه .

أما " إنْ ، وإذا " فهما للشرط فى الاستقبال ، يعنى أن فعل الشرط فيهما لابد أن يكون مستقبلا فى المعنى ، سواء كان ماضى اللفظ ، أو مضارعه [٣٣] .

لكنهما يفترقان فى جانب دلالى معلوم ، وهو انفراد " إنْ " بالمشكوك ، والمتوهم وقوعه ، وانفراد " إذا " بالمتيقن والمظنون الوقوع . وسائر أدوات الشرط كـ (إن) فى حكمها المذكور [٣٤] .

---

[٣١] يراجع : الزمخشرى : الكشاف ، ٣/٢ .

[٣٢] د / محمد عبد المطلب : جدلية الإفراد والتركيب فى النقد العربى القديم ، ص ٢٠١ .

[٣٣] القزوينى : الإيضاح ، ١٨٦/١ ، والبهاء السبكى : عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) ، ٣٨/٢ .

[٣٤] محمد بن عرفة الدسوقى : حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص) ، ٣٩/٢ .

وقد تخرج " إن " عن معنى الشك والارتياب فى حدوث الفعل ، بل إنها قد تخرج عن معنى الشرط كلية لتأخذ معنى " إذ " ، وذلك على رأى الكوفيين فى تأويلهم لقول الله تعالى : **{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ }** [المائدة :٥٧]

البنية السطحية : يا أيها الذين آمنوا ← إن كنتم مؤمنين

البنية العميقة : يا أيها الذين آمنوا ← إذ كنتم مؤمنين

فهم يرون أن " إنْ " خرجت عن معنى الشرطية ، وأصبحت بمعنى " إذ " التى هى اسم للزمن الماضى [٣٥] ، لأن الخطاب فى الآيتين للمؤمنين ، ولو كانت " إن " شرطية (أى تفيد الشك) لتغير المعنى ، وانصرف الخطاب لغير المؤمنين ، لأن الفعل الماضى فى الجزاء ، معناه ينصرف إلى المستقبل [٣٦]

والباحث يرى أن هذا التفسير يتماشى مع الالتزام الحرفى بالقاعدة ، ومحاولة التوفيق بين المعنى الظاهرى للآية والمعنى الأصلى لـ " إن " .

أما الأقرب إلى روح الخطاب القرآنى ، والأولى من ناحية البلاغة ، فهو بقاء معنى الشرط فى (إن) مع تحول دلالة الشك إلى إثارة المتلقى وتهييجه للبعد عن المحظورات المنهى عنها ، وذلك هو الأجدر بالسياق الذى وردت فيه تلك التراكيب .

السياق الأول : نهى عن التعامل بالربا

إن كنتم مؤمنين حقا ، فذروا ما بقى من الربا

السياق الثانى : نهى عن موالاة أعداء الدين

إن كنتم مؤمنين حقا ، فلا تتخذوا أعداء الدين أولياء

وهنا تتحول بؤرة الدلالة لتتركز فى نفس المتلقى لإثارته وتهييجه ، وحثه على تنقية إيمانه من الشوائب المنهى عنها ، لأن الإيمان الصادق لا يتوافق مع ارتكاب تلك المحظورات [٣٧] .

وقد تخرج " إن " عن معناها الأصلى ، فتدخل على الحدث المجزوم بوقوعه ، لتحقيق أغراض دلالية ، كإيهام التجاهل من جهة المتكلم ، أو تجهيل المخاطب بتنزيله منزلة الجاهل لمخالفته بعمله مقتضى علمه ، أو توجيه التهكم والتوبيخ للمتلقى الخاص المذكور فى الصياغة [٣٨] ، كما فى قول الله تعالى : **{ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ**

---

[٣٥] ابن هشام : مغنى اللبيب ، ٩٤/١ .

[٣٦] يراجع : ابن هشام : مغنى اللبيب ، ٣٣/١ ، والهروى (على بن محمد) : الأزهية فى علم الحروف ، تحقيق عبد المعين الملوحى ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

[٣٧] يراجع : ابن هشام : مغنى اللبيب ، ٣٤/١ ، والزمخشرى : الكشاف ، ١٦٦/١ ، ٣٤٧ .

[٣٨] السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٣٥ ، والقزوينى : الإيضاح ، ١٨٩/١ ، وشروح التلخيص :٤٤/٢ ، ٤٥ .

إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** } [البقرة : ٢٣ ، ٢٤]

البنية السطحية : وإن كنتم فى ريب ... فأتوا بسورة ⟵ شك

واقع المتلقى الخاص : مرتاب ، عاجز عن الإتيان بالسورة ⟵ يقين

دخول حرف الجر (فى) الدال على الظرفية ، على لفظ (الريب) يفيد إحاطته بقلوب الكفار ، وانغماسهم فيه ، وقد أثبت الحق سبحانه ريب الكفار فى القرآن ، وذكر ادعاءاتهم بأنه سحر يؤثر ، وبأنه أساطير الأولين اكتتبها الرسول ﷺ ، كما أثبت عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن . وعلى هذا فإن حال المتلقى الخاص ، وسياق الصياغة يرشحان خروج " إن " عن معنى الشك إلى دلالة أخرى تتجه إلى التهكم بالمتلقى الخاص ، وتوبيخه على ريبته التى لا مبرر لها ، فهو إذا تدبر فى حال الرسول ﷺ ، وفى أمانته وصدقه قبل البعثة وبعدها ، وفى إعجاز القرآن وبلاغته الخارجة عن قدرة البشر ، زالت شكوكه وريبته من أساسها ، فعدول " إن " عن معناها الأصلى " لقصد التوبيخ على الريبة ، لاشتمال المقام على ما يقلعها عن أصلها ، وتصوير المقام لا يصلح إلا لمجرد الفرض للارتياب ، كما قد تفرض المحالات متى تعلقت بفرضها أغراض " (٣٩)

وقول المتنبى لسيف الدولة : [من البسيط]

إنْ كـانَ سَـرَّكُمُ مـا قـالَ حاسِـدُنا ⟵ فمـا لجُـرْحٍ إذا أرْضـاكُمُ أَلَـمُ

وَبَيْنَنَـا لَـو رَعَيْتُـمْ ذاكَ مَعْرِفَـةٌ ⟵ إنَّ المعـارِفَ فى أهْـلِ النهُّـى ذِمَـمُ (٤٠)

البنية السطحية : إنْ كان سرَّكم ما قال حاسدنا شك

الواقع الفعلى : حدوث جفوة مشهورة بين المتنبى وسيف الدولة يقين

تهدف الصياغة إلى تكوين واقعها الخاص الذى يغاير كثيرا الواقع الفعلى المحيط بالصياغة ، من أجل تكثيف دلالة خاصة تغاير دلالة الشك التى تفرزها " إن " .

فالواقع الفعلى يؤكد حدوث الجفوة بين الذات المبدعة (المتنبى) والمتلقى الخاص (سيف الدولة) والإنصات إلى الواشين قد باعد بين الحبيبين ، ومع ذلك تصدرت " إن " الصياغة لتنشر دلالة الشك على واقع فعلى أليم ، لتتجه الدلالة إلى تكثيف شعور الأسى العميق المسيطر على الذات المبدعة ، واستبعادها حدوث القطيعة ، وجفاء سيف الدولة ، بسبب ما يجمعهما من أواصر المودة القديمة ، لذا فحدوث الجفوة لا يكاد يُصدَّق ، ولا يتصور إلا على سبيل الفرض المحال المستبعد .

وتتجه الصياغة فى البيت الثانى إلى تكثيف شعور الاستبعاد والاستنكار ، بتأكيدها على أواصر المودة القديمة ، وتذييل البيت بحكمة عميقة مؤكدة " إن المعارف فى أهل النهى ذمم " ، يفرز دلالة تعريضية تتجه بؤرتها مباشرة إلى المتلقى الخاص (سيف الدولة) ، لتنقل إليه نبرات اللوم والعتاب ،

---

(٣٩) السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٣٦ .

(٤٠) العكبرى : التبيان فى شرح الديوان (ديوان المتنبى) ، ٣/٣٧٠ .

وإنكار تنكره للود القديم .

إن المعارف فى أهل النهى ذمم
جفاء الأصدقاء القدامى خيانة
سيف الدولة جفا المتنبى
سيف الدولة (ملوم) (خائن)

إنتاج الدلالة التعريضية

ومن المعلوم أن " إذا " و " إنْ " للشرط فى الاستقبال ، أى أنهما يستعملان لتعليق حصول أمر (جواب الشرط) بحصول ما ليس بحاصل الآن (الشرط) ، أى أن الشرط والجواب غير ثابتين ، فيمتنع أن تكون صياغتهما فى صورة جملة اسمية ، لأن الاسم يدل على الثبوت بأصل وضعه ، ولما كان حدوث الشرط وجوابه فى المستقبل ، امتنع أن يكونا فعلين ماضيين لفظا ومعنى ، لأن الفعل الماضى يدل على اكتمال الحدوث والانقطاع ، وهذا ينافى دلالة الاستقبال .

وقد يتم العدول عن هذه القاعدة المثالية ، لتحقيق أغراض جمالية فى الصياغة ، كإظهار شدة الرغبة فى حدوث الشرط ، فيؤتى به فعلا ماضيا لفظا ، لتخييل أنه حدث وانتهى [٤٠]

كما فى قول الله تعالى : **{ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا }** [النور : ٣٣]

البنية السطحية : إن أردن تحصنا

البنية العميقة : إن يردن تحصنا

ظهور معنى الشك فى الصياغة بدخول (إن) ، يصور واقعا فعليا منتشرا ، وهو ندرة الرغبة فى التحصن والعفاف من الإماء اللائى نشأن فى هذا الجو الفاسد لخدمة سادتهن الطامعين فى مزيد من الأموال الدنسة ، والعدول عن استخدام الفعل المضارع ، إلى الفعل الماضى (أردن) يعكس رغبة شديدة فى القضاء على هذا الواقع الفعلى الأليم ، وتكوين واقع جديد يشيع فيه الطهر والعفاف ، لهذا كان وجود الفعل الماضى – الدال على الحدوث والانقطاع على مستوى الوجود ، وعلى مستوى الإخبار – وسيلة لتأصيل واقع مأمول نبذت فيه الرذيلة تماما ، وأقبلت " الفتيات " فيه على الفضيلة [*]

ولما كانت " إذا " تدخل على الحدث المتيقن وقوعه ، أو المظنون الوقوع ، كثر تغليب لفظ الماضى معها على المستقبل فى الاستعمال ، لكون الماضى أقرب إلى القطع من المستقبل ، لأنه بوضعه اللفظى يدل على تمام الحدوث ، والانتهاء .

كما فى قول الله تعالى : **{ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ }** [الأعراف : ١٣١]

تهدف الصياغة إلى تشكيل بنية تقابلية تجسد رد فعل آل فرعون تجاه حالتى الرخاء والشدة .

---

[٤٠] السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٣٧ .

[*] سيتم تناول مدى ارتباط النهى بالشرط فى هذه الآية فى الباب الثالث (علم البديع) ، فى مبحث (عكس الظاهر) .

obeikandi.com

الرخاء	الشدة
(إذا) : يقين	(إن) : شك
(جاءتهم) : فعل ماض ، حدوث وإنتهاء	(تصبهم) : فعل مضارع ، استقبال
(الحسنة) : تعريف ، كثرة	(سيئة) : تنكير ، قلة

كثفت الصياغة دلالة اليقين والكثرة فى حالة الرخاء ، عن طريق تصدير الجملة بـ " إذا " التى تفرز معنى التوقع اليقينى بالنظر إلى كون حصول الحسنة المطلقة مقطوعا به كثرة وقوع ، واتساعا ، وأكد ذلك ورود الشرط فعلا ماضيا ، ليؤكد حدوث الحسنة واكتمالها ، وجاء تعريف دال " الحسنة " تعريفا عهديا يوحى بالكثرة والتواتر ، وأكد ذلك جواب آل فرعون (قالوا : لنا هذه) بتقديم المسند (لنا) على المسند إليه (هذه) أى الحسنة ، تقديما يفيد الاختصاص ، أى نحن المستحقون لها ، لعهدنا بها ، وإلفنا لاستمرارها .

وفى الجانب المقابل ، فى حالة " الشدة " ، عمدت الصياغة إلى إشاعة دلالة التقليل والندرة ، بدخول " إن " التى تفيد الشك والندرة ، وإيراد الشرط فعلا مضارعا يدل على الاستقبال ، وعدم الحدوث بعد ، وتنكير دال (سيئة) ليفيد القلة والندرة ، وأكد دلالة الندرة تصرفُ " آل فرعون " تجاه الشدة ، باعتبارها حدثا طارئا غير معتاد يستدعى التشاؤم والتطير ببنى إسرائيل الطارئين على مصر ، أرض النعيم الموصول [٤٢]

وذكر السكاكى أن ورود الشرط بعد (إن) فعلا ماضيا ينتج دلالة تعريضية [٤٣] كما فى قول الله تعالى : { **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ** } [الزمر : ٦٥]

البنية السطحية : لئن أشركت ... شك

المتلقى الخاص : الرسول المعصوم ﷺ ←

دخول (إن) التى تفيد الشك ، يحول الدلالة الكلية للصياغة إلى فرض محال ، " والمحالات يصح فرضها لأغراض " [٤٤] ، والغرض هنا إنتاج دلالة تعريضية تتجه إلى المتلقى العام لتحذيره وترهيبه ، لأن الدلالة المباشرة لا يمكن أن تتوجه إلى المتلقى الخاص (الرسول المعصوم من الله) لاستحالة حدوث الإشراك منه . فالدلالة موجهة أساسا إلى المتلقى العام ، ولكن الصياغة عدلت عن التصريح المباشر ، إلى التعريض ، لأنه أشد تأثيرا فى النفوس .

فإن افترض أن محمدا الرسول الحبيب المقرب من ربه أشرك بالله ، فإن مصيره الخسران فى الدنيا

---

[٤٢] يراجع : الزمخشرى : الكشاف ، ٨٤/٢ ، والسكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٣٥ .

[٤٣] السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٣٧ .

[٤٤] الزمخشرى : الكشاف ، ٣٥٥/٣ .

والآخرة ، فكيف بمن هو أبعد منزلة منه ، وأكثر خطئا .

وهناك هدف آخر ترمى إليه الصياغة بمؤكداتها الكثيرة [قد ، وتكرار القسم فى (لقد) ، و(لئن)] وهو " الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهر ، وتحديد منزلة محمد ﷺ من هذا السلطان ، وأنه ليس إلا رجلا منكم يخاطب خطابكم فلا يتوهم متوهم أنه على شئ من صفات الألوهية ، وإن قربه ربه أحسن تقريب وكرمه أحسن تكريم ، وبهذا ومثله مما يحدد ويعمق صفة البشرية فى رسول الله ﷺ ، يضمن القرآن ويحفظ نقاء عقيدة التوحيد، فلا يشوبها فى الإسلام ماشابها فى الشرائع الأخرى ... " [٤٥]

ويوافق الباحث رأى الدكتور " محمد أبو موسى " فى أن دلالة التعريض ليست ناتجة عن وقوع الفعل الماضى بعد "إن" –كما يقول السكاكى–لأن وقوع المضارع بعدها لن يزيل الدلالة التعريضية[٤٦] ، لأنها تتولد فى ذهن المتلقى بعد تدبره فى الصياغة ، وتأكده أن دلالتها المباشرة لا يمكن أن تتوجه إلى المتلقى الخاص المذكور فى الصياغة ، وإنما تتوجه إلى المتلقى العام الذى يقرع سمعه هذا النص فى كل زمان ومكان .

---

[٤٥] د / محمد أبو موسى : خصائص التراكيب ، ص ٣٣٩ .

[٤٦] المرجع السابق : ص ٣٤٠ .

obeikandl.com

التبادل الدلالى بين أدوات القصر

نبه البلاغيون القدماء إلى أن الناتج الدلالى المباشر لطرق القصر وأدواته يتصل بالمتلقى وردود أفعاله تجاه مفردات العالم الخارجى ، والأشياء المختلفة المحيطة به .

فهم يقولون : إن طريق القصر بالنفى والاستثناء أصله " أن يكون ما استعمل له مما يجهله المخاطب وينكره ... وأصل القصر بـ (إنما) أن يكون ما استعمل له مما يعلمه المخاطب ولا ينكره ، على عكس النفى والاستثناء " [٤٧] .

وهذا يمثل الصياغة فى تشكيلها الموافق لمقام مقتضى الظاهر ، حيث يتوافق واقع الصياغة الذى تفرزه أدوات القصر وبقية الدوال الأخرى ، مع الواقع الفعلى الذى تعكسه ردود فعل المتلقى تجاه العالم الخارجى ، وأحداثه المختلفة .

وحين يتحور تشكيل الصياغة ليخالف مقام مقتضى الظاهر ، تنتج أدوات القصر وبقية الدوال الأخرى واقعا صياغيا مفارقا للواقع الفعلى للمتلقى ، وذلك يبرز عنصر القصدية من جانب المرسل ، حيث يتوخى من صياغته المخالفة لمقتضى الظاهر تحقيق أهداف معينة ، " فينزل المعلوم منزلة المجهول لاعتبار مناسب ، فيستعمل له النفى والاستثناء " [٤٨]

والمتلقى الخاص المذكور فى الصياغة هو المقصود بالناتج الدلالى للصياغة المخالفة ، للفت انتباهه إلى حالة الانفصام بين موقفه الباطنى العميق (العلم بمضمون الرسالة) ، وبين رد فعله الظاهر (الجهل بمضمون الرسالة) ، ورد فعل المتلقى الظاهر هو الذى يلتقطه المرسل ويشكل واقعه الصياغى وفق مقتضياته ، ليحث المتلقى على المسارعة بالتوفيق بين اعتقاده الباطنى وبين رد فعله الظاهرى .

قال عبد القاهر الجرجانى : " وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئا هو من المعلوم الذى لا يشك فيه ، قد جاء بالنفى ، فذلك لتقدير معنى صار به فى حكم المشكوك فيه " [٤٩] .

ومن ذلك قول الله تعالى : { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** } [آل عمران : ١٤٤]

طريق القصر (النفى والاستثناء) ← دلالة الجهل والإنكار (واقع الصياغة)

اعتقاد المتلقى الخاص ← العلم والإيمان برسالة محمد وبشريته

رد فعل المتلقى ← عدم تصديق موت الرسول ﷺ (إنكار)

يفرز " النفى والاستثناء " واقعا صياغيا ، تجسد دلالته جهل المتلقى بمضمون الرسالة . وإنكاره له . ولكن الواقع الفعلى للمتلقى الخاص مفارق للواقع الصياغى ، فالصحابة – رضوان الله عليهم – يعلمون أن محمدًا ﷺ بشر رسول كغيره من الرسل ، يموت كما ماتوا ، ويؤمنون بذلك إيمانا جازما .

---

[٤٧] القزوينى : الإيضاح ، ١٨/٢ ، ٢٠ ، ويراجع السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٦٥ .

[٤٨] القزوينى : الإيضاح ، ١٨/٢ .

[٤٩] عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه محمود شاكر ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

ولكن ردود أفعالهم التى ظهرت منهم عقب إشاعة قتل الرسول ﷺ فى غزوة أحد ، تخالف هذا الإيمان الباطنى الجازم ، فكثيرون منهم استعظموا موته عليه الصلاة والسلام ، وتركوا القتال غير مصدقين لهذا الخبر ، ومنكرين له . ومن هنا وردت الصياغة وفق مقتضى رد الفعل الظاهرى ، لتلفت المتلقى الخاص (الصحابة) إلى أن استعظامهم خبر موت الرسول ، وإنكارهم له ، كجهلهم رسالته وإنكارهم لها ، لأن كل رسول مكتوب عليه الموت ، فمن استبعد موته ، فكأنه استبعد رسالته . وفى هذا حث للمتلقى على وجوب المواءمة دائما بين اعتقاده الباطن ، وبين أفعاله الظاهرة .

وتشير الصياغة إلى عدة دلالات : " ففيها عتاب عنيف ، وفيها استجهال ، وإشارة إلى غفلتهم ، وأنهم لا يسلكون فى المواقف الصعبة مسلكا ينبثق من مضمرات قلوبهم ، ويلتزم بما ترسخ فيها من حقائق واعتقادات ، وأنهم يوشكون أن يكون لهم ظاهر مخالف لباطنهم ، وأن أصول الاعتقاد توشك أن تهتز بالنوازل العارضة ، مع أنكم لا تزالون فى نضارة اليقين ، ولا يزال صليل الوحى يتردد صداه فى آفاقكم " [٥٠] .

وقد صرح السكاكى بأن هذه الآية – وأشباهها – من إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر [٥١]

أما القصر بـ " إنما " فيستخدم فيما يعلمه المخاطب ولا ينكره ، ولذلك فإن الصياغة تنتج دلالة تعريضية موازية لدلالتها المباشرة ، لأن المتلقى لن يفيد شيئا إذا وجهت له رسالة يعلم مضمونها تمام العلم ، قال عبد القاهر : " اعلم أنك إذا استقريت وجدتها (أى إنما) أقوى ما تكون ، وأعلق ما ترى بالقلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه " [٥٢] .

كقول المتنبى لكافور الإخشيدى يرققه على ابن مولاه الإخشيد : [من الخفيف]

إنَّمـــا أنْـــتَ والِـــدٌ والأبُ القـــاطـــعُ أحْنَـــى مِـــنْ وَاصِـلِ الأوْلادِ [٥٣]

الدلالة الحقيقية : كافور بمنزلة الوالد

المتلقى الخاص : كافور (عالم بالدلالة الحقيقية)

الدلالة التعريضية : القيام بحق الأبوة من العطف والحنو ، والتهذيب والتقويم .

توجيه الرسالة الأدبية إلى متلق خاص (كافور) ، يعلم مضمونها الحقيقى المباشر تمام العلم ، يؤذن بتحول الرسالة الأدبية إلى لغة اتصال نفعية ، بل بتحولها إلى لغو لا هدف منه ، وهذا يلفت الانتباه إلى وجوب تجاوز الدلالة الحقيقية المباشرة ، للوصول إلى الدلالة التعريضية العميقة ، كى تتحقق شعرية الرسالة . فالمتلقى العام يدرك من ضغوط الدلالة المباشرة على المتلقى الخاص ، ومن السياق العام الذى تتحرك الصياغة فى فضائه وهو نشوب الخلاف بين " كافور " وبين ابن مولاه الإخشيد ، أن

---

[٥٠] د / محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ١١١ .

[٥١] السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٦٢ ، ١٦٥ .

[٥٢] عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، ص ٣٥٤ .

[٥٣] ديوان المتنبى (بشرح العكبرى) : ٣٣/٢ .

الدلالة التعريضية هى المقصودة من الصياغة . فيجب على كافور أن يقوم بحق الأبوة لابن مولاه الإخشيد ، فينصح له ، ويعطف عليه ، ويقومه ويقسو عليه ، إذا اقتضى التهذيب ذلك .

وقد يكون مضمون الرسالة مجهولا مطموسا ، ولكن المرسل يدعى ظهوره ووضوحه ، فيستعمل طريق القصر بـ " إنما " لتوصيل رسالته ، خروجا على خلاف مقتضى الظاهر ، لتعكس الصياغة هذا القصد الادعائى .

كما حكى القرآن عن المنافقين : { **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ** } [البقرة : ١١ ، ١٢] [٥١]

الرسالة : إنما نحن مصلحون ← (معلومة ، ظاهرة ، شائعة)

المرسل : المنافقون ← (مدّعٍ)

المستقبل : المسلمون ← (عالم بحقيقة الأمر)

وقعت " رسالة " المنافقين بين " رسالتين " تهدف صياغتهما إلى كشف ادعاء رسالة المنافقين وكذبهم ، حيث صُدّرت صياغة الرسالة الأولى بأداة الشرط (إذا) التى تفيد تحقق ما بعدها ، وكثرة وقوعه ، وهذا يشير إلى كثرة إفسادهم فى الأرض ، بدليل كثرة نهيهم عنه .

وهنا ينكر المنافقون حدوث الفساد منهم ، ويدعون أن صلاحهم معلوم ظاهر ، بل يتمادون فى ادعائهم فيقصرون أنفسهم على الصلاح ، وأنهم ليس لهم وصف سواه ، وتأتى الرسالة الثانية لتهدم ادعاء المنافقين ، وتكشف كذبهم ، وتنبه على إفسادهم تنبيها صياغيا محسوسا عن طريق تكثيف دلالة التأكيد ، بتوالى المؤكدات ، فبدئت الصياغة بـ " ألا " التى تفيد التنبيه على تحقق ما بعدها ، وجاءت الجملة بعدها اسمية لتفيد الثبوت بأصل وضعها الدلالى ، وصدرت الجملة بـ " إن " التى تفيد التوكيد ، وعرف الخبر (المفسدون) بـ (ال) لزيادة التوكيد ، وجاء ضمير الفصل (هم) ليكثف دلالة التوكيد ، ويعلى نبرة الصياغة ، لتهدم – تماما – ادعاء المنافقين ، وتكشف زيفهم وكذبهم [٥٤]

وقول المتنبى فى كافور الإخشيدى : [من الطويل]

فَمالَكَ تختارُ القِسِيَّ وإنَّما ← عَن السَّعْدِ يَرْمِى دُونَكَ الثَّقَلانِ ؟

وَمَالَكَ تُعْنَى بالأسِنَّةِ والقَنا ← وَجَدُّكَ طَعّانٌ بغيرِ سِنانِ ؟

ولِمْ تحْمِلُ السَّيْفَ الطَّويلَ نِجادُهُ وأنتَ غنِيٌّ عَنْهُ بالحَدَثانِ ؟ [٥٥]

الرسالة : إنما يرمى دونك الثقلان (معلومة ، ظاهرة ، شائعة)

المرسل : المتنبى (مدّعٍ)

المستقبل : أنصار كافور ، وأعداؤه ، (والمتلقى العام) (منكر)

طريق القصر بـ " إنما " يجعل المفارقة العميقة مهيمنة على الصياغة ، فـ (إنما) بحكم أصلها الدلالى تجعل مضمون الرسالة معلومًا ، مألوفا ، شائعا ، مع أن كون الثقلين (الإنس والجن) طوع أمر

---

[٥٤] يراجع الزمخشرى : الكشاف ، ٣٣/١ ، والسكاكى : المفتاح ، ص ٦٦ ، والقزوينى : الإيضاح ، ٢٠/٢ .

[٥٥] ديوان المتنبى (بشرح العكبرى) : ٢٤٧/٤ .

كافور ، وفى خدمته ، ويسعدونه بمحاربة أعدائه ، معنى غريب ، مجهول ، مستبعد ، وتخييل أن هذا الأمر الغريب المستبعد ، مألوف شائع (باستخدام إنما فى القصر) يولد دلالة السخرية ، والتهكم ، والعبث بكافور ، فى البنية العميقة للصياغة . ويقوى هذه الدلالة (المنتشرة فى القصيدة كلها) ، أن الاستفهام فى الأبيات الثلاثة ينتج دلالة النفى والإنكار ، ويسلطها على الدوال التى تشير إلى الشجاعة والإقدام (اختيار القسى ، والعناية بالأسنة والقنا ، وحمل السيف) ، وبالتالى نفى مدلولاتها (الشجاعة ، والقوة ، والإقدام) عن الممدوح (كافور) ، وهى مدلولات طالما تغنى الشعراء بنسبتها إلى الممدوحين حقيقة أو ادعاءً ، واكتفى المتنبى فى مدحه بسعادة الجد ، ويُمن الطالع ، وإقبال الزمان ، وهى معان قليلة الدوران وحدها فى شعر المدح عند العرب ، لأنها توحى بأن صاحبها نال ما نال من السيادة والملك دون أن يكون أهلا له ، ودون أن يستحقه .

وهذا يدعم قول أبى الفتح ابن جنى عن هذه القصيدة : " هذا المدح ينعكس هجاء " [٥٦]

ومثله قول عبيد الله بن قيس الرقيات فى مصعب بن الزبير : [من الخفيف]

إنَّمــا مُصْـعَبٌ شِـهابٌ مِـنَ اللَّــ ← ـهِ تجلَّـتْ عَـنْ وَجْهِـهِ الظَّلْمــاءُ [٥٧]

الرسالة : إنما مصعب شهاب من الله ← (معلومة ، ظاهرة ، شائعة)

المرسل : زبيرى الهوى والصحبة ← (ادعاء ظهور المضمون وشيوعه)

المستقبل : الخاص (شيعة ، وأمويون) ← (إنكار المضمون ورفضه)

المستقبل : العام (تردد فى قبول المضمون)

مماسبق ندرك أن التقارض بين الحروف والأدوات ، والتبادل الدلالى بينها ، يقترن دائما بإثراء النص الأدبى ، ويسهم فى إخراج دلالته من دائرة الوحدة إلى منطقة الكثرة ، وتعدد الدلالات المحتملة ، وانفتاح بنية النص ، واحتمالها تأويلات متعددة ، تبعا لقدرة المبدع على استخدام الحروف والأدوات بطريقة فنية تخدم البنية الكبرى للنص " لأن قدرة الفنان على استعماله لهذه الأدوات الثانوية قد تتجاوز كل ما يظن البلاغيون أنهم أحاطوا بأبعاده ، وهى فى السياق يومئ وضعها فيه إلى ما يشبه الرمز الإشارى ، لتفجر ظلالا من الإيحاءات الفنية الخاصة " [٥٨]

وتبعا لقدرة المتلقى على التواصل مع بنية النص ، وتفاعله مع أنساقها الدلالية .

---

[٥٦] المرجع السابق : ٢٤٢/٤ .

[٥٧] عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، ص ٣٣١ ، والسكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٦٦ ، والقزوينى : الإيضاح، ٢١/٢ .

[٥٨] د / جاء عيد : فى البلاغة العربية ، القاهرة ، مؤسسة كليوباترا ، سنة ١٩٨٣ ، ص ١٠٥ .